◆ فرنسا .. النشأة والتطور ◆

*** الجذور الأولى :**

سادت فرنسا في تطورها ، وانتقالها من طور البداوة والبربرية والتخلف إلى أن تصبح رائدة لشعوب أوربا ، سارت على سنن التاريخ، وجرى عليها ما جرى على بقية الشعوب، ولم تصل الأمة الفرنسية إلى ما وصلت إليه إلا بعد رحلة مخاض طويلة امتزجت بالدماء والصعاب. وإن كان موضوعنا في هذا الكتاب عن شخصية جول مازاران وأستاذه ريشيليو، فقد كان لابد أن نتعرض- كما ذكرنا في المقدمة - إلى تلك الظروف التاريخية والسياسية التي عاشا فيها، والقيادات السياسية لا تعمل في فراغ، ولا تمتلك العصا السحرية لتغيير مجرى الأحداث، وإنما هناك ملابسات وعقبات وأعداء متربصون وحساد وناقمون، وقبل كل ذلك المزاج العام الذي يسود مجتمعاتهم، والذي شكلته سنوات طويلة من العمل والكفاح، والنجاحات والإخفاقات.

لذلك، ولفهم طبيعة دور الزعامات التاريخية، لابد لنا من دراسة التاريخ الذي عاشوا فيه، أو لنقل لابد من عمل (فلاش باك) لتلك الأحداث، فهي لابد مؤثرة.

نبدأ من البداية، وربما تكون البداية بعيدة جدًّا، نبدأ من أوائل القرن الخامس لنمسك الخيط من أوله، ونعاصر لحظة بلحظة كيف يتكون هذا الخيط ويتجمع ويلتف ليكون هذا الكيان الكبير.. فرنسا.

ولنبدأ من القرون الوسطى (من أوائل القرن الخامس إلى أواخر القرن الخامس عشر) .

◆ تكون الدولة الفرنسية ◆

غزوات البرابرة :

ابتداء من سنة ٤٠٦ م أخذت بلاد الغال (فرنسا الحالية) تتعرض، مثل بقية أنحاء الإمبراطورية الرومانية، لغزوات قبائل آتية من الشمال أسماها المؤرخون (البرابرة) (قياسا على المستوى الذي بلغته الإمبراطورية الرومانية آنذاك) وتتكون من قبائل الوندال والفيزيقوط والبورغوند والفرنكيين أو الفرنجة - وهؤلاء الأخيرون أعطوا غالبا اسمهم، فأصبحت تعرف باسمها الحالي (فرنسا).

وتعود هذه القبائل باسمها إلى العِرْق الجرماني، لذلك كثيرا ما تسمى غزواتها في القرن الخامس باسم الغزوات الجرمانية.

ويوما بعد يوم تزداد الغزوات الجرمانية وتجد في تلك البلاد ملاذًا آمنا وخيرًا وافرًا حتى بدأت أعدادها تتزايد وتشكل القوة الغالبة حتى كانت هي الطبقة الحاكمة وصاحبة السلطان والنفوذ بما اقتطعته من أراض تابعة للإمبراطورية الرومانية الضعيفة.

وقد شكل تاريخ فرنسا ثلاث أسر تولت الحكم وتوارث أفرادها المُلْكَ جيلا بعد جيل حتى قضت الثورة الفرنسية على الملكية سنة ١٧٨٩ .

ونعرض الآن تاريخ هذه الأسر بإيجاز :

١ - الأسرة الميروفنجية (من سنة ٤٨١ - ٧٥١) Dynastie Mérovingiene

مؤسسها هو أحد قادة الغزوات البربرية، ويدعى كلوفيس (٤٦٥ - ٥١١) وكان قائدًا للفرنجة أو (الفرنكيين) وبعد عدة سنوات من المعارك والحروب الطاحنة بين الغزاة أنفسهم، تمكن كلوفيس من أن يفرض سيطرته ويوحد بلاد الغال (وذلك سنة ٤٨١) التي أصبحت تسمى بلاد الفرنجة (أو بلاد الفرنك) أو فرنسا.

وفي سنة ٤٩٦ م اعتنق كلوفيس الديانة المسيحية، وفي سنة ٥١١ م جعل باريس عاصمة ملكه، وهكذا أصبحت فرنسا مستقلة عمليا عن الإمبراطورية

الرومانية التي بدأ نجمها في الأفول بعد سنوات طويلة من القوة والسيطرة.

لكن الحضارة التي أصبحت غالبة عسكريا وسياسيا في فرنسا وفي سواها من المناطق في أوربا، وهي الحضارة الجرمانية (البربرية) لم تتمكن من إزالة الطابع الحضاري الروماني، بل إنها هي نفسها تبنتها وسارت بها، وكانت الديانة المسيحية عنصرًا أساسيا في عملية الاستيعاب والهضم الحضاريين.

بعد موت كلوفيس (سنة ٥١١ م) انقسمت البلاد إلى ثلاث ممالك ما انفكت تتقاتل فيما بينها، كما قوي نفوذ الحجاب Les maires du palais على حساب سلطة الملوك الذين أطلق عليهم المؤرخون (الملوك الخاملون) Rois Fainants .

وفي سنة ٦٨٧ م تمكن أحد الحجاب وهو بيبن دي هوشتال Pépin de Hestal من أن يصبح القائد الحقيقي للممالك الثلاث. وبين سنة ٧١٥ - ٧٤١ خلفه ابنه شارل مارتل الذي ينعته المؤرخون الغربيون بـ (بطل معركة بواتيه Poitiers)، المعروفة في التاريخ الإسلامي بمعركة (بلاط الشهداء) حيث أن العرب المسلمين قفلوا راجعين إلى الأندلس بعد موت قائدهم عبد الرحمن الغافقي، وكانت هذه المعركة في سنة ٧٣٢ م .

٢ - الأسرة الكارولنجية (من سنة ٧٥١ - ٩٨٧) Dynastie Carolingienne

تسعة ملوك ألّفوا هذه الأسرة ، أولهم بيبن لو بريف القصير ابن بيبن دي هرشتال وآخرهم لويس الخامس، وأشهرهم شارلمان.

في سنة ٧٥١ م تمكن بيبن القصير من الإطاحة بـ (شلدريك الثالث) آخر الملوك الميروفنجيين. وإرساء دعائم أسرة الكارولنجيين. وبعد موته تقاسم ابناه كارلومان وشارلمان الحكم حتى تمكن الأخير (شارلمان) من الانفراد بالسلطة، وتوّجه البابا لاون الثالث في روما في سنة ٨٠٠ م إمبراطورًا على الغرب، ولقب بالقائد الزمني[1] للمسيحية وحامي حماها. إلا أنه رغم الانتصارات التي حققها وبشكل خاص في بافاريا والساكس، فإنه هُزم أمام الجيوش العربية الإسلامية في

(١) تقابل السلطة الزمنية للإمبراطور السلطة الروحية المتمثلة في البابا، أو رجال الدين. أي أن الإمبراطور له السلطة الدنيوية والبابا له السلطة الدينية.

الأندلس، حيث خسر معظم قواده، وعلى رأسهم القائد الشهير رولان Roland في معركة روتسفو.

بعد موت شارلمان أصبحت الإمبراطورية الفرنسية مسرحا لخلافات حادة بين أبنائه، الأمر الذي جعلها تتقلص وتنحصر فقط في فرنسا. كما بدأ حكم الأسرة الكارولنجية يتدهور شيئا فشيئا، ولم تعد قادرة على صد هجوم النورمان الذين احتلوا المنطقة التي تسمى اليوم باسمهم (نورماندي Normandie) واستقروا بها نهائيا عام ٩١١ م .

٣ - الأسرة الكابتية (من سنة ٩٨٧ - ١٧٩٢ م) Dynastie Capétienne

٣٣ ملكا ألفوا هذه الأسرة ، أولهم هوج كابي Hugues Capet ، وآخرهم لويس السادس عشر الذي تم إعدامه في عام ١٧٩٢ م.

كان النظام الإقطاعي آخذًا في القوة طيلة القرن التاسع على حساب السلطة الملكية المركزية التي بدت عاجزة تماما عن الوقوف في وجه الغزوات الخارجية: الإسكندیناف النورمان من جهة ، الذين تمكنوا - كما ذكرنا سابقا - من احتلال النورماندي، والمجريون الذين وصلوا بزحفهم إلى باريس نفسها في عام ٨٨٦ م. ولم يتمكن من إيقافهم وإجبارهم على التراجع سوى الكونت أود كابي Euded Capet وقد ظهرت الملكية الفرنسية في أواخر القرن التاسع اسمًا دون مضمون، إذ كانت البلاد منقسمة إلى أكثر من ٣٠٠ كونتية، وكل كونتية مستقلة عن الأخرى بصورة شاملة.

في عام ٩٨٧ م انتخب هوج كابي (أحد أحفاد الكونت أود) ملكا بعد وفاة الملك الكارولنجي لويس الخامس (الخامل) ومع هوج بدأ حكم الأسرة الكابتية ولكن هذه الأسرة بقيت أيضا ضعيفة إزاء سلطات الإقطاع والكنيسة نحو قرنين من الزمان، وكاد ملوكها أن يغيبوا تماما عن التأثير في الأحداث السياسية الكبرى، فلم يتدخل ملك فرنسا لا في الغزوات التي تعرضت لها إنجلترا، ولا في الصراع الناشب بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وبين البابوية، إذ كانت السلطة على الأراضي الفرنسية قد أصبحت في أيدي الإكليروس (رجال الدين) والأسياد الإقطاعيين.

في القرن الثاني عشر بدأت الأسرة الكابتية عملية النهوض بالبلاد، فقد أقنعت إقطاعي البلاد وأسيادها بمبدأ وراثة العرش لأبناء الأسرة وتعيين الوريث في حياة الملك، الأمر الذي لم يكن معمولا به في الإمبراطوريات الأوربية الأخرى. وفضلا عن ذلك، فإن موالاة - بل خضوع - الملوك الكابتيين للكنيسة أكسبهم دعمها المطلق، وهو أمر لم يحظ به لا ملك إنجلترا، ولا إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة. ففي فرنسا قامت الدعوة للحملة الصليبية الأولى على الشرق الإسلامي، وحمل لواءها بابا فرنسي هو أوربانوس الثاني، وبناء عليه أطلق على الصليبيين اسم الفرنجة، أي الفرنسيين. ومن دير كلوني في فرنسا انطلق الإصلاح الجريجوري المترافق مع حركة تأييد الملكية الفرنسية. كما بدأت نهضة فلسفية (أرسطوطالية وأفلاطونية) منقولة من مؤلفات العرب - وأدبية ومعمارية (بناء الكنائس والكاتدرائيات).

عمل الملوك الكابتايون من داخل النظام الإقطاعي، فأصبحوا بسبب موقعهم المتميز (الإقطاع الأقوى) على كامل الأراضي الفرنسية أواخر القرن الثالث عشر، وأخذوا يتدخلون في مختلف الإقطاع والأتباع، ودشن الملك لويس السادس سياسة القضاء والحكم بين الإقطاعيين. وقد تمكن خلفاؤه من المحافظة عليها.

ومن أهم العوامل الأخرى التي بدأت تدفع في اتجاه تقوية نظام الملكية على حساب نظام الإقطاعية :

١ - ولادة المدن وتوسعها على أساس وظيفة تجارية بالدرجة الأولى يمسك بها طبقة بورجوازية وليدة وصاعدة.

٢ - تطور التقنيات الزراعية : حلول الحديد محل الخشب ، استثمار الطاقة الهيدرولوكية، اتباع مناوبة زراعية ثلاثية (كل ثلاث سنوات) .

٣ - ازدياد ديموجرافي : حيث وصل سكان فرنسا من ٨ ملايين نسمة في حوالي عام ١٠٠٠ م إلى عشرين مليونا في عام ١٣٠٠ م.

٤ - انتقال الناس والبضائع داخل البلاد وخارجها، وكذلك الحج إلى روما وإلى القدس وغيرهما من الأماكن المقدسة.

٥ - تجمع التجار في روابط نقابية، وظهور الكمبيالات في معارض منطقة شامبانيا التي كانت مركز الحياة الاقتصادية لأوربا، والواقعة على الطريق التجاري بين الشمال والجنوب.

٦ - الإلغاء التدريجي لنظام الرق الزراعي .

هذه العوامل كلها جاءت في سياق تطور اجتماعي صب في مصلحة الملكية ودفع باتجاه تقوية سلطتها المركزية.

◆ الإشعاع الفرنسي في القرن الثالث عشر ◆

بدأت فرنسا ، ولأول مرة ، تظهر مرهوبة الجانب على مسرح السياسة الأوربية، في أعقاب الانتصار الذي حققه الملك فيليب الثاني أوغست على الإنجليز وعلى التحالف الأوربي في معركة بوفين عام ١٢١٤ التي أمّنت للملك السيطرة على الغرب الفرنسي. وبعدها، جاءت الحملة على حركة الكاتار في الجنوب الفرنسي الذي أصبح خاضعا للسلطة المركزية في الشمال. أما باريس فقد أصبحت إحدى أهم المدن الأوربية، وخاصة للدور الذي قامت به جامعتها في الإشعاع الثقافي الذي طال أوربا قاطبة. فقصدها الفلاسفة والعلماء ورجال الفكر، من أمثال ألبير الكبير ، وتوما الأكويني، ودانس سكوت، وإيكهارت، وغليوم أوكام.. وغيرهم. ومع لويس التاسع أصبح ملك فرنسا حجة روحية كبيرة، خاصة بسبب دوره في الحملات الصليبية، وحكمًا في النزاعات الأوربية.

وعلى صعيد الحكم والإدارة اللذين بدأ إصلاحهما مع فيليب أوغست، فقد استمر هذا الإصلاح ووصل إلى مستوى متقدم مع الملك فيليب لوبل (الجميل) فأصبحت سلطة الملك ممثلة في جميع أرجاء البلاد، وقامت نخبة من المشرعين الذين عملوا واجتهدوا على أساس القانون الروماني!! فأدى عملهم إلى إيجاد مفهوم جديد للدولة، لم يعد الملك بموجبه مجرد (سيد) بين الأسياد أو الإقطاعيين، أو السيد الأول بينهم أو فوقهم، بل أصبح الممثل الحي للقانون والمسئول عنه. ولم يمر هذا التطور في مفهوم الدولة والملك دون حدوث أزمة بين الكنيسة والملك فيليب لوبل ، كما أن هذا التطور كان في أساس أول

اجتماع عقده مجلس الطبقات (النبلاء - الأكليروس، الشعب) بناء على دعوة الملك في عام ١٣٠٢ م. أضف إلى ذلك أن فكرة الدولة أخذت تتوافق مع شعور وطني (ومفهوم للوطن) بدأ ينبلج على حساب العقيدة الخلاصية الدينية الكونية التي كانت طاغية في القرن الثالث عشر.

وستعرف فكرة الدولة، المتوافقة مع مفهوم ومشاعر الوطن نموًا مطردًا في القرون التالية، إلى أن تبلغ أوجها مع القوميات.

* **حرب المائة سنة (١٣٣٧ - ١٤٤٠) :**

جاءت أزمة خلافة العرش عقب وفاة أبناء فيليب لوبل، واعتلاء فيليب السادس العرش، وهو من أسرة فالوا Valois إحدى فروع الأسرة الكابتية، ليوقظ النزاع القديم بين فرنسا وإنجلترا، وقد زاد منه هذه المرة تنافس الدولتين على إقليم الفلاندرا.

شكلت هذه الحرب فترة عصيبة جدًّا بالنسبة إلى فرنسا (يمكن إدراجها في خانة أزمة سياسية واقتصادية واجتماعية عامة ضربت بلدان أوروبا الغربية) والتي كان من أهم مظاهرها الاجتماعية والاقتصادية:

١ - توقف التوسع الزراعي .

٢ - مجاعات وأمراض أدت إلى انتقاص في عدد السكان.

٣ - تقدم التجارة البحرية (البندقية وجنوة) أدَّى إلى توقف أسواق منطقة شامبانيا الفرنسية.

٤ - عدم استقرار أسعار النقد.

٥ - فوضى وثورات قام بها الإقطاعيون والبورجوازيون (والتي كانت آخذة في النمو) وعامة الشعب، وأهم هذه الثورات: تمرد ١٣٥٨ في إيل دوفرانس، انتفاضة باريس التي قادها إتيان مارسيل، وثورتا ١٣٨٢ ، ١٤١٣م.

وقد شملت هذه الفترة تغييرات اجتماعية عميقة. إذ شمل تحرير القن (العبيد العاملون في زراعة الأرض) كامل الأراضي الفرنسية تقريبا. في حين بدأ الأسياد الإقطاعيون يتخلون عن أراضيهم بسبب مصاعبهم المالية، وتتنامي، في موازاة ذلك، طبقة بورجوازية أعطت أشرافا سياسيين (مثل إتيان مارسيل، جاك كور،

وغيرهما) وانبثقت منها طبقة من الفلاحين الميسورين.

وقد استفادت البورجوازية من التجديد الاقتصادي، غداة الحرب، الذي عرف الملك شارل السابع والملك لويس الحادي عشر كيف يطلقانه باتخاذ إجراءات جريئة، مثل: تنظيم تعاونيات مدنية، تنمية صناعة الحرير، إقامة أسواق مدينة ليون، إصلاح النظام النقدي، إجراءات تشجيع التقارب بين طبقتي النبلاء والبورجوازيين. أضف إلى ذلك سياسة هذين الملكين التي تميل إلى تقوية سلطة الملك المركزية مستفيدين من ظهور وحدة وطنية، حول الملك لمواجهة الخطر الإنجليزي، خاصة وأن بطلة وطنية، هي جان دارك كانت قد ظهرت في السنوات الأخيرة من حرب المائة سنة، حاملة مشعل تحرير فرنسا من الإنجليز.

ارتقت جان دارك هذه (١٤١٢ - ١٤٣١) إلى مصاف البطلة الشعبية والقديسة، نظرا إلى شجاعتها واكتسابها صفة رمز الوحدة الوطنية لدى الفرنسيين.

كانت في سن المراهقة حين بدأت مشاعرها الوطنية تضج في جو انقسام الشعب الفرنسي وهو يجابه الإنجليز. وفي غمرة المشاعر الوطنية قادت المقاتلين الفرنسيين في ٨ آيار ١٤٢٩ لفك حصار الجيش الإنجليزي عن مدينة أورليانز الفرنسية ولكنها وقعت عام ١٤٣٠ في أسر قوات دوقية بورغندي الذين باعوها للإنجليز. وواجهت محاكمة صورية انتهت بإعدامها حرقا.

جدير بالذكر أنه في عام ١٩١٩ م ،، غداة الحرب العالمية الأول، قررت الحكومة الفرنسية اعتبار يوم الأحد الثاني من مايو عيدًا قوميًا تكريما لذكرى جان دارك. وكذلك فقد اعتبرتها الكنيسة الكاثوليكية قديسة!!

وبعد حرب المائة سنة، وفي غمرة الإصلاحات، خاصة المتصلة منها بتقوية سلطة الملك أصبح لفرنسا جيش نظامي دائم.

◆ فرنسا في التاريخ الحديث ◆

*** فرنسوا الأول وحروب القرن السادس عشر :**

بعد عقود طويلة من انتهاء حرب المائة سنة خاضت فرنسا حروبا متتالية، خاصة تلك الحرب التي قادها فرنسوا الأول ضد أسرة هابسبورج النمساوية التي امتدت إمبراطوريتها إلى هولندا وإيطاليا وإسبانيا، والتي أصبح أحد ملوكها، وهو شارل الخامس (شاركان) إمبراطورا على ما سُمِّي آنذاك الإمبراطورية المقدسة.

وفرنسوا الأول (١٤٩٤ - ١٥٤٧) هو ابن شارل دوفالوا المعروف باسم شارل دو أورليانز، وهو كونت أنغوليم وحفيد الملك شارل الخامس. اعتلى فرنسوا العرش (١٥١٥ - ١٥٤٧) بعد وفاة لويس الثاني عشر الذي لم يكن له وريث، وذلك بصفته صهره، وهذا ما جعل مقاطعة بريتانيا فرنسية بشكل نهائي.

تميز فرنسوا بخصائص فروسية، فلقب (بالملك الفارس) وكان يملك ثقافة عامة في الآداب والفنون.

منذ بداية حكمه كان فرنسوا الأول يخضع لتأثير والدته لويز دي سافوا، كذلك لوزيريه الرئيسيين روبرتيه وديبار.

تابع الحروب الإيطالية، وكان حليفا لمدينة البندقية، وأجبر السويسريين على التزام عدم مقاتلة فرنسا وعلى مدها بالجنود مقابل السلام. وقع مع البابا لاون العاشر اتفاقًا سمّي (اتفاق بولونيا) - مدينة في إيطاليا - في ١٨ أغسطس ١٥١٦، يقضي بأن يسمّى الملك الأساقفة والآباء (أي يعينهم)، مما قلّص سلطة البابا عليهم، إضافة إلى اعتراف البابوية بامتيازات كنسية أعطيت للملك.

في العام نفسه (١٥١٦) تفاوض فرنسوا الأول مع ملك إسبانيا الجديد (شارلكان) حول معاهدة نويون Noyon التي ضمنت فرنسا بموجبها ميلانو مقابل اعترافها بشارلكان ملكا لنابولي. وفي العام نفسه عقد فرنسوا الأول معاهدة مع السلطان العثماني سليمان القانوني تقضي بالحصول على امتيازات فرنسية في السلطنة ذات طابع اقتصادي وثقافي. والمعروف أن هذه الامتيازات، التي توسعت في القرن التاسع عشر، أحد الأسباب الرئيسية في انهيار السلطنة. كذلك

كان لهذه المعاهدة أثرها في حروب فرنسوا وشارلكان. وبعد موت إمبراطور النمسا مكسيميليان، ترشح فرنسوا الأول للمنصب، لكنه لم يستطع منافسة شارلكان ملك إسبانيا الذي كان يملك أموالا طائلة في بنك فيجر (١٥١٩).

أدت مطامح الإمبراطور النمساوي الجديد (الإمبراطورية المقدسة) شارلكان في فرنسا إلى حروب طويلة بينه وبين الملك الفرنسي فرنسوا الأول. وقد حاول هذا الأخير عبثا ، التحالف مع هنري الثامن ملك إنجلترا. في عام ١٥٢١ م هاجم شارلكان ميزيير ولم ينجح في الاستيلاء عليها ، لكنه تمكن في عام ١٥٢٤ م من طرد الفرنسيين من ميلانو بفضل خيانة داخلية تعود بأسبابها إلى عدم اعتراف أسرة بوربون (فرع آخر من الأسرة الكابتية) بأن لويس الثاني عشر قد وضع إرثهم وممتلكاتهم بتصرف فرنسوا الأول.

في عام ١٥٢٥ م هاجم ملك فرنسا إيطاليا ، ولكن حملته لم تنجح وأدت إلى وقوعه في الأسر في بافي (٢٤ فبراير- ١٥٢٥م) فتولت والدته السلطة خلال أسره الذي لم يتحرر منه إلا بعد أن وقع معاهدة مدريد (١٥٢٦) التي تخلى بموجبها عن ميلانو وبورغوني، وتوجت هذه المعاهدة بينه وبين شارلكان بزواجه من أخت الأخير، وكانت زوجته الأولى كلودي فرانس قد توفيت في عام ١٥٢٤م. ورغم ذلك بقى الشقاق حادًا بين الطرفين.

تجددت الحروب بين فرنسوا وشارلكان (١٥٣٦) اضطر خلالها شارلكان إلى توقيع هدنة لمدة عشر سنوات بسبب تفشي الأمراض في جيوشه. ولكن الحرب تجددت في ١٥٤٢ م ، فنزلت قوة فرنسية - عثمانية في نيس (جنوبي فرنسا على البحر المتوسط) وسجل فرنسوا انتصارا كبيرا عام ١٥٤٤ م في إيطاليا انتهت بمعاهدة كريبي أونلديومي (سبتمبر ١٥٤٤) تنازل بموجبها فرنسوا عن السافوا وفلاندر، وتنازل شارلكان عن بورغونيا. أما الأزمة مع هنري الثامن ملك إنجلترا فانتهت في ١٥٤٦ م بمعاهدة أردر.

بالنسبة لسياسة فرنسوا الأول الداخلية فقد تميزت بالتسامح إزاء البروتستانت (وكانت حركتهم الإصلاحية قد بدأت في عهده) وحقق رخاءً اقتصاديا، ومنح في ١٥٣٦ م إتيان تيركه امتيازا لإنشاء معامل حرير في ليون، فكانت إيذانا بانطلاق هذه الصناعة التي راحت في ما بعد تتغذى بحرير لبنان خلال القرن التاسع عشر.

أما النصف الثاني من القرن السادس عشر فقد تميز بالحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت التي بلغت أوج عنفها في مذبحة ليلة القديس بارتسيلي Saint Barthélémy سنة ١٥٧٢ ، والتي ذهب ضحيتها عدة آلاف من البروتستانت بأمر الملك شارل التاسع، وبتحريض من والدته كاترين دو ميتشي. ولم تنته تلك الحروب إلا عام ١٥٩٧ م بعد أن تولى الحكم هنري الرابع (والذي سوف يكون لنا معه لقاء في الصفحات التالية) الذي تزوج من كاترين دو ميتشي. وقد كانت تلك الحروب الدينية أنكى على فرنسا بكثير من الحروب الإيطالية التي سبقتها. إن هذه الحروب كادت أن تقضي على الوحدة التي حققتها فرنسا بعد جهود هائلة، وأورثت فرنسا عللا لا يمكن قياسها بخسائر المعارك وحدها. فقد قامت مدينة على أخرى، وأخذت قرية بتلابيب أخرى، وقامت أسر بعضها على بعض، وأصبحت المصادمات المسلحة والاغتيالات قصة كل يوم. وقد ارتكبت حوادث القتل نتيجة لتعصب ديني، وبعضها طلبًا لثأر خاص، وبعضها الآخر نتيجة نوبة من الإرهاب الأهوج، كما يحدث في كل وقت تفتك فيه جرثومة الجاسوسية الرهيبة بجهاز الدولة السياسي ، وانحرفت المثل العليا لدى أتقياء البروتستانت (الهيجونوت)[١] ولم ينأى بنفسه عن ذلك إلا عقلاء الإنسانيين.

ومن جراء ذلك كله خرجت فرنسا من الحروب الدينية مرهقة ماديا وسياسيا. فقد تداعت سلطة الملوك المطلقة التي تمتع بها ملوك من طراز فرنسوا الأول، وانفصمت الروابط التي كانت تربط أجزاء البلاد، حتى لقد استقل كثير من الأمراء في مناطقهم، فأصبحوا يجمعون الجيوش ويفرضون الضرائب لحسابهم الخاص، وانحلت موارد البلاد الصناعية والزراعية والتجارية، وكان على فرنسا أن تبذل جهودًا مضنية لإصلاح ما اندثر وإعمار ما تخرّب. وقد جاء الملك هنري الرابع ليبدأ العمل.

---

(١) كان يطلق على بروتستانت فرنسا اسم الهيجونوت، وهم المعتنقون مذهب كلفن.

◆ هنري الرابع (مؤسس أسرة البوربون) ◆

(١٥٩٤ - ١٦١٠)

هو هنري الرابع، أو هنري نافار Navarre أول ملوك أسرة البوربون (فرع آخر من الأسرة الكابتية) كان زعيما من زعماء البروتستانت (الهيجونوت)، وآلت إليه ولاية العهد لعرش فرنسا في عام ١٥٨٩ بعد موت أخي الملك شارل التاسع وولي عهد العرش واسمه هنري الثالث؛ ذلك لأن فرع البوربون كان يلي فرع الفالوا في أحقيته للعرش الفرنسي، كما كان هنري نافار متزوجا من مرجريت أخت الملك هنري الثالث من أسرة الفالوا الحاكمة.

ولو كان هنري كاثوليكيا لما كانت هناك أية موانع لولاية العهد، ولكنه كان من أشد أنصار البروتستانتية، بل كان زعيما للبروتستانت، ولذا كان أعضاء الاتحاد الكاثوليكي (الذي كان يسيطر على شئون فرنسا من عام ١٥٧٦ حتى ١٥٩٤م، وتؤيده إسبانيا وتحميه) يفضلون قيام جمهورية في فرنسا على تولية هنري نافار الحكم.

ولما قُتل هنري الثالث (ولي العهد) في عام ١٥٨٩ أصبح لهنري نافار الحق في أن يعتلي عرش فرنسا ، ولكن كان عليه أن يغزو باريس التي كانت تحتلها الجنود الإسبانية لكي يصل إلى العرش الفرنسي. ولم يكن ذلك الغزو أمرًا هينا، لأن هنري نافار كان قد فقد ثقة الكثير من أتباعه البروتستانت؛ بسبب ما تردد عندئذ من شائعات من احتمال تغيير هنري نافار لعقيدته، كما أن أعضاء الحزب الكاثوليكي أرادوا إنقاذ العرش من ملك بروتستانتي فأعلنوا دوق بوربون من ذوي قربى هنري الثالث ملكا على فرنسا.

وبعد أحداث وصراعات عديدة استغرقت الفترة ما بين ١٥٨٩ وحتى ١٥٩٤ أهمها معركة ايفري Ivery (عام ١٥٩٠) وتلقى فيها هنري المساعدة من إليزابيث ملكة إنجلترا وبعض الأمراء الألمان والإيطاليين، وذلك ضد إسبانيا والبابوية وبعض الأمراء الألمان (الحلف الكاثوليكي)، وبعد أن تحول هنري في نهاية الأمر إلى الكاثوليكية لكي يصل إلى عرش فرنسا.. بعد ذلك كله انتهت

الأمور بتغلب هنري نافار على كافة الصعاب التي واجهته، ووصوله إلى عرش فرنسا، بل وأصبح جديرًا بتقدير الشعب الفرنسي له، ليصبح بحق أحد أبطال فرنسا البارزين.

لم يكن معنى ما سبق أن الأمور كانت قد أصبحت سهلة بسرعة على هنري الرابع. فقد كان لزاما عليه أن يتخطى كثيرا من العقبات لتدين له البلاد بالطاعة الكاملة، ولتستقر الأمور بعد أن زعزعتها الحروب الدينية ثلاثين عاما أو يزيد.

أما أخطر المشاكل التي واجهته فكانت تتمثل في موقف أسرة الهابسبورج[1] بفرعيها في النمسا وإسبانيا. فخطر الإسبان لم ينقطع بخروج القوات الإسبانية من باريس، إذ كان لا يزال ماثلا في الشمال على أتم الاستعداد للإساءة إلى مركز الملك والعمل على تقويض عرشه إن أمكن.

كما كان عليه أن يواجه غضب الهيجونوت (البروتستانت) وسخطهم عليه بعد تحوله عن عقيدتهم واعتناقه الكاثوليكية. وكان عليه أن يعمل بكل الوسائل على إرضاء هذه الطائفة التي تزعمها - الكاثوليك - ولم يخف عنه مدى ما وصلت إليه من سلطان وقوة. ثم كان عليه منذ الوهلة الأولى أن يعمل على إعادة تنظيم فرنسا داخليا وإقرار السلام والطمأنينة بها، وذلك بمعالجة جميع مشكلاتها الاجتماعية والاقتصادية التي تراكمت من جراء الحروب الدينية الطويلة. وكان من أهم الأمور التي في أولوياته وأعطاها جل اهتمامه :

*** الخطر الإسباني :**

اقتضت الظروف من هنري الرابع أن يبدأ بالتخلص من الخطر الإسباني ليتمكن من التفرغ لحل المشاكل الأخرى. فبدأ بإعلان الحرب على إسبانيا في يناير ١٥٩٥م واعتمد في ذلك على حماسة الفرنسيين لبغضهم الشديد للإسبان، ولأن مطامع ملك إسبانيا - فيليب الثاني - في عرش فرنسا كانت قد تبينت أثناء الحروب الدينية. كما اعتمد هنري الرابع على ولاء غالبية الشعب الفرنسي وحبه لمخلصه من ذلك الخطر الماثل.

---

(١) ظهر آل هابسبورج في واجهة الأحداث في أوروبا في منتصف القرن الثالث عشر، ولم يختفوا منها إلا عام ١٩١٨. ومرت فترة حكموا فيها أوروبا كلها، باستثناء فرنسا، وكان حكمهم يمتد وصولا إلى أمريكا.

لم يكن الصراع مع إسبانيا بالأمر الهيّن. إذ كانت إسبانيا متحالفة مع البابوية، وتمتلك أبرع فرق المشاة في أوروبا كلها، كما كان إقليم بريتاني مركز قوة الإسبان في فرنسا حيث أقاموا قلعة كروازيل Croisil . ولكن الخطر الرئيسي كان يقع على الحدود الشمالية حيث تستطيع القوات الإسبانية أن تتقدم من ولايات الأراضي المنخفضة الجنوبية (هولندا) التي كانت يومئذ خاضعة لها. هذا بالإضافة إلى أن الإسبان قد استطاعوا أن يضعوا أيديهم على مناطق عديدة في فرنسا مثل بيكارديا وكالبة ومدينة إميان المهمة. حيث كان البروتستانت ناقمين على الملك لتحوله إلى الكاثوليكية.. ومن هنا كان الخطر العظيم.

إلا أن هنري أجرى استعداداته الجيدة، وساعدته الإمدادات التي وصلت إليه من إنجلترا. ومن ثم استطاع أن يحاصر إميان، وأن يهزم القوات الإسبانية لتسقط إميان في يد الملك عام ١٥٩٧ ، وليعقد صلح فرفان Vervins بين فرنسا من ناحية وإسبانيا والبابوية من ناحية أخرى. وبموجب هذا الصلح تنازلت إسبانيا عن كاليه وغيرها من المواقع التي حصلت عليها حديثا في بيكارديا.

والواقع أن أهمية صلح فرفان لا ترجع إلى مواده فقط التي احتوى عليها، وإنما تكمن في حقيقة هامة، وهي أن هنري الرابع قد استطاع أن ينقذ فرنسا من أطماع فيليب الثاني ومشروعاته الضخمة لضمها لحكم إسبانيا. كما تمكن من إقامة ملكية قومية في فرنسا تعمل لصالح البلاد ولتخليصها من كل الأضرار التي نزلت بها نتيجة لتلك الحروب التي عرضت استقلالها للخطر.

*** التسوية الدينية :**

كانت التسوية الدينية جزءًا من حركة واسعة النطاق لإعادة بناء فرنسا السياسي والاجتماعي. وقد اشتهر هنري الرابع بإنجاز هذا العمل الهام، وقُورن عمله في هذا المجال بأعمال نابليون عندما تمكن له السلطان في فرنسا. وكانت تسوية ١٥٩٨ م التي عرفت باسم مرسوم نانت Edit de Nantes أول اعتراف رسمي صريح بالتسامح الديني في تاريخ غرب أوروبا، باعتباره أول اعتراف عام بقيام أكثر من طائفة دينية داخل الدولة الواحدة. وقد جعلت هذه التسوية الشهيرة التسامح الديني جزءًا من القانون الدستوري لفرنسا قبل الاعتراف به في إنجلترا

وألمانيا بوقت طويل.

لقد كانت التسوية الدينية من المسائل الملحة التي واجهت هنري الرابع مؤسس أسرة البوربون في مطلع عهده. فالبروتستانت الذين تحدوا التاج الفرنسي أكثر من ثلاثين عامًا والذين ازدادت أعدادهم، كان في استطاعتهم في أي وقت أن يُنزلوا إلى الميدان جيشا لا يقل عدد رجاله عن خمسة وعشرين ألفا، لهذا لم يكن من اليسير إخضاعهم.

والواقع أنه لم يتم استصدار مرسوم نانت في سهولة ويسر؛ ذلك لأن أغلبية الكاثوليك في فرنسا لم تكن راضية عنه. واشتدت حوله المعارضة في برلمان باريس، وكان طبيعيا أن يعارضه الكاثوليك لأنه - أي المرسوم - كان يقضي بمنح البروتستانت امتيازات دينية وسياسية ومدنية وقضائية. ولكن الملك استطاع بعد مفاوضات مضنية استغرقت وقتا طويلا أن يتوصل إلى تسوية أو (مرسوم نانت) حتى أنه لما اشتدت معارضة الكاثوليك في البرلمان، فإنه - أي الملك - رأى أن يشهد مناقشة المرسوم بنفسه ، فذهب إلى البرلمان بغية التأثير على أعضائه. وقد تم له ما أراد وهو موافقة الكاثوليك - مضطرين - على صدور المرسوم.

ووفقا لمرسوم نانت مُنح كل سيد أو شريف ومن كان صاحب ضياع حق إقامة الشعائر البروتستانتية في نطاق إدارته. وسمح المرسوم للمدن أن تزاول العبادة على المذهب البروتستانتي إذا تبين بأنه يشكل فيها دين الأكثرية السائدة. ولكنه منع إقامة شعائر المذهب البروتستانتي في المدن التي فيها أسقفيات كاثوليكية وفي مدينة باريس والقطاع المحيط بها. ووعد المرسوم البروتستانت بالتمتع بالحقوق المدنية نفسها التي يتمتع بها الكاثوليك وأن يقوموا معهم على قدم المساواة في الوظائف العامة ويسمح لهم بالدخول في الجامعات الكاثوليكية.

وتشكلت وفق هذا المرسوم مجالس مختلطة في عدد معين من محاكم القانون العليا لكل من البروتستانت والكاثوليك. وأعطى المرسوم البروتستانت حق استخدام وسائلهم الخاصة من أجل الدفاع عن أنفسهم، ومنحهم نحوا من مائة مدينة محصنة تُشرف عليها حاميات بروتستانتية بقيادة بروتستانتية.

لقد طمأن مرسوم (نانت) أقلية البروتستانت (الهيجونوت) فأصبحوا أقل عنصر ثوري في الدولة. وتمت صيانة أبرز أقلية في فرنسا عن طريق الحكومة المركزية وليس بالتمنيات المألوفة.

وقد استمر العمل بهذا المرسوم ثلاثين عاما، ثم استبدل بمرسوم آخر يعرف بمرسوم أليس Alais في عام ١٦٢٩ أيام كان ريشيلو رئيسا للوزارة. وقد أدى ذلك إلى ظهور عدد لا بأس به من السياسيين والقادة العسكريين والأشخاص المهمين في تاريخ فرنسا في القرن السابع عشر.

وبالإضافة إلى ذلك المرسوم الشهير أعاد الملك هنري الرابع هيبة السلطة الملكية، بالحد من سلطة الإقطاع، وأدخل إصلاحا ماليا واقتصاديا معتمدا على وزيره الذائع الصيت (سلي) أو صولي Silly .

◆ لويس الثالث عشر ◆

(١٦١٠ - ١٦٤٣)

في ١٤ مايو عام ١٦١٠ م أقدم رافاياك Ravaillac على قتل الملك هنري الرابع، ورافاياك هذا كان كاثوليكيا متعصبا. وبعد مقتل هنري الرابع تولى الحكم لويس الثالث عشر، الذي وُلد في سنة ١٦١٠، وهذا يعني أنه عند وفاة والده - هنري الرابع - كان قاصرًا يحتاج إلى وصاية. وقد قامت بهذه المهمة أمه الإيطالية ماري دوميتشي Marie de Medicis . لكن الملكة وقعت تحت نفوذ أصدقائها في البلاط من الإيطاليين الذين أحضرتهم معها من بلادها، ومنهم كونسيني Concini الذي ارتفعت مكانته في عهدها إلى مرتبة (مارشال) فرنسا.

ونتيجة لنفوذ كونسيني غيرت الملكة الأم سياسة فرنسا تغييرا كليا، فوثقت علاقتها مع إسبانيا الكاثوليكية الهابسبورجية بعد عهد التنافر والعداء بأن زوجت ابنها لويس الثالث عشر من الأميرة آن النمساوية، وزوجت ابنتها إليزابيث من ابن ملك إسبانيا. وقد ترتب على ذلك هياج البروتستانت في فرنسا، بل واعتزال سلي Silly عمله في يناير ١٦١١ م .

لقد نجحت ماري في البداية في تهدئة البروتستانت، الذين احتجوا ضد الزواج الإسباني وضد انزواء سلي البروتستانتي. وذلك باهتمامها بتطبيق مرسوم (نانت). كما أن شخصيتها القوية ظهرت فعلا في توجيه سياسة فرنسا الداخلية، إذ أنها كانت وراء المرسوم الملكي الذي حُلَّ بموجبه مجلس الطبقات سنة ١٦١٥ م وليبقى مشلولا حتى قبل اندلاع الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ .

والواقع أن حل مجلس الطبقات ارتبط بأمرين رئيسيين : الأول هو اصطدام طبقة النبلاء والأكليروس القوية آنذاك في داخل المجلس بقوة البورجوازية التي طالبت بإعادة النظر والتحقيق في الهبات التي قدمتها الملكة للنبلاء. كما طالبوا بإصلاح مفاسد الكنيسة، ووجوب خضوع رجال الدين للمحاكم الزمنية. الأمر الثاني : هو أن مقتل هنري الرابع على يد أحد المتعصبين الكاثوليك تبعه تململ النبلاء والأكليروس في عهد ماري وإثارتهم المتاعب لها. وهكذا فقد أجبروها على دعوة مجلس الطبقات. لكن جلسات المجلس سادتها المصالح المتنازعة والمنافع المتبادلة والمرية. ولم يتمخض عقد المجلس عن إقرار شيء مفيد. وهنا طردت ماري جميع ممثليه، ولتصبح الحكومة تدار بواسطة الملك.

لكن ماري سرعان ما واجهت صعوبات خطيرة من ناحية النبلاء الذين انتهزوا فرصة ضعف الملكية لتحقيق آمالهم الإقطاعية والاستقلال بإماراتهم، وكان يتزعم هؤلاء الأمير كونديه، الذي كان صاحب أطماع في العرش الفرنسي نفسه. ولم يلبث الأمر أن انتهى بإلقاء القبض على كونديه وسجنه في الباستيل في سبتمبر ١٦١٦ م وكادت الحكومة أن تتغلب على أعوانه الذين تحصنوا في بلدة سواسون Soissons لولا ظهور الارتباكات الداخلية في البلاط الملكي نفسه، بسبب رغبة لويس الثالث عشر في الإمساك بمقاليد الحكم ونبذ وصاية أمه ونفوذ صديقها كونسيني. وبعد فترة من الاضطرابات انتهى الأمر بالقبض على كونسيني وقتله عام ١٦٢٠، ليتفرغ الاثنان لخطر آخر كاد يقضي على الملكية.

أما الخطر الجديد فكان يتمثل في أن البروتستانت الذين استاءوا من قبل بسبب التحالف مع إسبانيا، وأثيرت خواطرهم بسبب حوادث الخصام بين الملك وأعوانه من جهة والملكة وأعوانها من جهة أخرى، ثم زادت هواجسهم بسبب قيام حرب الثلاثين عاما واحتدام المناقشات الدينية. هؤلاء البروتستانت قرروا

العمل في تلك الآونة بكل همة ونشاط في تحصين مدنهم المسوَّرة، وكذلك إنشاء حكومات من طراز حكومة جنيف الكلفنية الجمهورية. ثم ألفوا بين مدنهم هذه اتحادًا قويا، فأصبح البروتستانت عبارة عن دولة داخل الدولة.

إن هذه الأعمال الانفصالية لم تلق اهتماما في البداية من الحكومة المركزية لانشغالها بالقضايا التي سبق ذكرها. ولكن بمجرد أن تم الاتفاق بين ماري ولويس الثالث عشر، استطاع الملك أن يتفرغ لمسألة البروتستانت (الهيجونوت). وبعد صراع استمر حتى سنة ١٦٢٢، عقد الملك الصلح مع البروتستانت في أكتوبر ١٦٢٢، وهو الصلح المعروف بمعاهدة مونبلييه Montpellier على أساس أن يمتنع البروتستانت عن عقد المجالس وأن يتم الاستيلاء على مدنهم الحصينة ما عدا مونتبان Montouban ولاروشيل La Rochell .

ومع أن مرسوم نانت تأيَّد مرة أخرى بمقتضى هذا الصلح، فقد كان واضحا أن البروتستانت قد بدأوا يفقدون جانبا كبيرا من قوتهم القديمة.

أما الحدث الأبرز في عهد لويس الثالث عشر، فهو تعيينه للكاردينال القوي (ريشيليو) وزيرا أول له؛ مما أدى إلى اختفاء دور الملكية المطلقة تقريبا، لتُخلي المجال للحكم الوزاري ممثلا في ريشيليو، وتلميذه مازاران من بعده.

وهنا نلتقي مع ريشيليو وقصة صعوده إلى سُدة الوزارة وصراعه مع المشكلات التي واجهته وكفاحه في سبيل إعلاء شأن الملكية، وكبح جماح النبلاء والإقطاع.

◆ الكاردينال ريشيليو Richelieu

(١٦٢٤ - ١٦٤٢)

كان القرن السادس عشر عصر الدولة الإسبانية، كما كان القرن السابع عشر عصر الدولة الفرنسية. وإذا كانت فرنسا قد قُدِّر لها أن تسيطر على أوروبا، فمرد ذلك بدرجة كبيرة يعود إلى أن الكاردينال ريشيليو استطاع أن يسيطر على فرنسا. وقد كرّس حياته لعظمة بلاده، وعندما كان يحتضر قال كلمته المشهورة: (ليس لي من أعداء سوى أعداء فرنسا).

عندما أصبح ريشيليو الوزير الأول عام ١٦٢٤ م كانت فرنسا مقسمة ضعيفة. ولم تغرق أهوال الحروب الدينية (١٥٦٢ - ١٥٨٩) الأمة في فوضى سياسية ومالية فحسب ، ولكنها خلقت أيضا هوة عميقة بين الكاثوليك والبروتستانت وكان مرسوم نانت الذي أصدره هنري الرابع قد منح البروتستانت استقلالا سياسيا معينا فغدا معقلهم في مدينة لاروشيل مجتمعا بروتستانتيا يتمتع بحكم ذاتي. ولكن ريشيليو قرر إنهاء هذا الوضع، لا لأسباب دينية، لأن كاثوليكيته كانت خاضعة للمصالح الوطنية، ولكن أدرك أن التناسق كان لازما إذا أريد لفرنسا أن تكون قوية.

وهكذا حاصر لاروشيل فسقطت عام ١٦٢٨ . وكانت هذه هي الخطوة الأولى في برنامج ريشيليو لجعل فرنسا أعظم دولة في أوروبا.

*** شخصية ريشيليو وأخلاقه :**

كان ريشيليو مهيئًا أفضل تهيئة لتحقيق برامجه الطموحة من أجل فرنسا. فقد كانت له طاقة هائلة للعمل، ثم إن شخصيته المثيرة للرهبة، وتقاطيعه الكالحة المتجهمة، وقامته الفارعة النحيلة، كلها كانت تؤثر في نفس كل من يحتك به تأثيرًا مغناطيسيا، وهذا ما ساعد على ظهور نجمه سريعا.

هو أرمان جان دي بلسيس دي ريشيليو، ولد عام ١٥٨٥ م. ولنا أن نتساءل: كيف يشق إنسان طريقه إلى القمة؟ في تلك الأيام كانت تعينه عراقة أصله. وكانت أم أرمان ابنة محام في برلمان باريس، أما أبوه فهو السنيور دي ريشيليو، المدبر الأكبر لبيت الملك في عهد هنري الرابع. وقد كانت أسرة بواتو العريقة قد ورثت في ذلك الحق في أن توصي الملك باختيار من ترشح لأسقفية لوسون. وقد عيَّن الملك هنري الرابع أرمان بهذه الطريقة في عام ١٦٠٦ ، وقد كان يومها في الحادية والعشرين. وإذ كان أصغر من السن المشترطة للأسقفية بسنتين، فإنه سارع إلى روما، وكذب في أمر سنه، وألقى أمام البابا بولس الخامس خطابا لاتينيا جميلا حمل البابا على أن يسلم له الأسقفية. أما وقد تحقق له (الأمر الواقع)، فقد اعترف ريشيليو بكذبته، وطلب المغفرة. وامتثل البابا وهو يقول: (إن هذا الفتى سيكون محتالا كبيرا)!!.

لم يتخذ ريشيليو وظيفته منصبا شرفيا عاطلا ، بل فرغ لأداء واجباته في اجتهاد ومثابرة، ولكنه وجد الوقت ليتملق كل صاحب نفوذ، ويسخِّر كل صاحب قوة. فلما اختار كهنة بواتو مندوبا لمجلس الطبقات سنة ١٦١٤ كان أرمان رجلهم. وأعجب كل من كان بالمجلس، ولا سيما ماري ديمتشي بوجهه الرزين، وقوامه الفارع الممشوق، وقدرته القانونية على تفهم الموضوعات تفهما واضحا وعرضها عرضا مقنعا.

استطاع ريشيليو أن يصبح وزيرًا لخارجية فرنسا نتيجة تقربه من الملكة ومستشارها الإيطالي كونسيني عام ١٦١٦ . وفي سبيل تدعيم مركزه أخفى أول الأمر اتجاهاته السياسية ، فأظهر استحسانا لسياسة الملكة وكونسيني في تأييد إسبانيا والعمل على مصادقتها، علما بأن سياسته - فيما بعد - عندما أصبح يسيطر على الموقف في فرنسا كانت معاداة إسبانيا ومحاربتها.

اضطر ريشيليو إلى الاستقالة في عام ١٦١٧ ، على أثر مقتل كونسيني، وظل بين عامي ١٦١٨ ، ١٦٢٤ بعيدا عن الاشتراك في السياسة الفرنسية نظرا لقيام الخلافات بين لويس الثالث عشر وأمه، وهي الخلافات التي انتهت بحصول لويس على كل سلطاته وصلاحياته كملك لفرنسا. ولما كان ريشيليو مقربا من الملكة ومستشارها، فقد نفى ريشيليو إلى أفنيون سنة ١٦١٨ لمدة عام، وبدا أن مجرى حياته السياسية قد انتهى. ولكن الجميع - حتى خصومه - اعترفوا بقدراته، ولما تدلت ماري ليلا من إحدى نوافذ قلعتها في بلوا وانضمت إلى قوة من النبلاء المتمردين، استدعى لون الأسقف الشاب وعهد إليه أن يرد الملكة إلى رشدها ويصلح بينها وبين الملك. فأفلح في المهمة، وحصل له لويس على قلنسوة الكردينالية، وعينه في مجلس الدولة. وسرعان ما وضح للعيان تفوق ريشيليو عقلا وإرادة، فأصبح رئيسا للوزراء في أغسطس ١٦٢٤ وهو في التاسعة والثلاثين خلفا لـ Vieuville رئيس الوزراء الذي قبض عليه وسُجن.

ومنذ ذلك التاريخ غدا ريشيليو الحاكم بأمره في فرنسا خلال الثمانية عشر عاما التالية. وقد كان ذلك يعود إلى أنه جمع من الصفات الشخصية ما هيأه لقيادة فرنسا طيلة عهده الوزاري دون منازع. حتى ذُكر عن لويس الثالث عشر قوله في ذلك العهد: (إن السيطرة على كافة ساحات الوغى في أوروبا لأسهل عليَّ من السيطرة على مكتب الملك).

وقد وجد الملك في ريشيليو تلك الصفات التي افتقدها في نفسه: الذكاء الموضوعي، والهدف الواضح، وصلابة الغايات، ومرونة الوسائط. وكان للويس من الحصافة ما جعله يتقبل إرشاد الكاردينال في المهمة الثلاثية (مهمة إخضاع البروتستانت، والنبلاء، وإسبانيا) قال ريشيليو في مذكراته مقدرا له هذه الخلة: (إن قدرة الملك العظيم على أن يسمح بأن يُخْدَم (أي بأن يفوض غيره بالسلطة) ليست أقل صفات الملك العظيم شأنا).

لم يكن لويس الثالث عشر متفقا مع وزيره في جميع الحالات، وكان أحيانا يوبّخه، وكان دائما يغار منه، وقد فكر بين الحين والحين في طرده. ولكن أنّى له أن يرفض رجلا يجعله مطلق السلطة في فرنسا وصاحب الكلمة العليا في أوروبا، ويحصل له من الضرائب أكثر مما كان سلي يجمعه !

*** عمل ريشيليو على تحقيق هدفين رئيسيين هما :**

الأول : اتحاد عناصر الأمة وزيادة نفوذ الملك داخل البلاد وتوطيد سلطانه بالقضاء على كل منافسيه من النبلاء أو البروتستانت أو المجالس الوطنية على السواء، وذلك بوضع نظرية متكاملة في الحكم والإدارة، ووضع خط عام للسياسة الفرنسية لا يقوم على العفوية أو الارتجال.

الثاني : العمل على تفوق فرنسا في أوروبا، وذلك بقهر الهابسبورج، وجعل الملكية الفرنسية مطلقة في الداخل وسيدة مهيمنة في الخارج. ولذا فإنه اعتقد أن مركزية السلطة هي الأساس لتحقيق وحدة فرنسا وعظمتها. وهذا يتضح من إحدى خطبه أمام الملك، حين قال:

.. (عندما شرفتموني جلالتكم بالمشاركة في مجالسكم الاستشارية تبينت بصدق أن الهيجونوت (البروتستانت) يشاركونكم في الحكم وأن النبلاء كانوا يسلكون سلوكا لا يدل على أنهم من رعاياكم. كما أن رؤساء الأقاليم منهم يتصرفون وكأنهم حكام مستقلون وقد أهمل شأن المعاهدات الأجنبية، وتغلبت المصالح الخاصة، كما تبينت أن قدر جلالتكم قد تضاءل بحيث كان الناس لا يشعرون به. وإنني أعاهد جلالتكم على أن أستغل كل جهودي ونفوذي لتحطيم طائفة الهيجونوت، ولأحطّ من كبرياء النبلاء، وأن أسوق كل الرعايا نحو تأدية ما

عليهم من واجبات ، وأن أسترد لفرنسا صيتها بين الشعوب الأجنبية).

وانطلاقا من خطة ريشيليو بدأ بالعمل على تحقيق وحدة فرنسا القومية، فرفض سيادة البابوية على الملوك، واحتفظ للكنيسة الفرنسية بقدر من الاستقلالية عن روما، وأخضع الكنيسة للدولة في الأمور الزمنية، ونفى الأب كوسان الذي تدخل في السياسة بوصفه كاهن الاعتراف الملكي.

وقد طبق مبادئه بكل حزم على الهيجونوت. فقد كان واضحا أمام ريشيليو منذ أول عهده للسلطة أن أهم ما يجب العناية به هو مسألة القضاء على النفوذ السياسي للهيجونوت، ذلك أنهم رغم معاهدة مونبيلييه في عام ١٦٢٢ جعلوا مدينة لاروشيل مدينة صاحبة سيادة من الناحية الفعلية، يشرف عليها تجارها ووزراؤها وقوادها. ومن هذا الميناء الاستراتيجي أرسل التجار تجارتهم إلى مختلف بقاع العالم، وأقلع القراصنة ليقتنصوا أية غنيمة أو مركب ، حتى المراكب الفرنسية، وكان في استطاعة أي عدو لفرنسا أن يدخل البلاد من هذا الميناء إذا أذن الهيجونوت. كذلك انتهك لويس ذاته المعاهدة، فقد وعد بهدم حصن لويس الذي كان خطرا دائما على المدينة، ولكنه بدلا من أن يهدمه زاده تحصينا.

وفي سنة ١٦٢٧ قاد دوق روهان Rohan ثورة قام بها الهيجونوت بمساندة مدينة لاروشيل وتلقى نجدات عسكرية من الإنجليز. لكن ريشيليو قضى على هذه الثورة بعد مرور عام على نشوبها. ونجح في دخول لاروشيل والاستيلاء عليها، وطالب الكاثوليك باستئصال شأفة الهيجونوت. ولكن ريشيليو فاجأ الهيجونوت بشروط صلح رأى فيه الكاثوليك تساهلا شائنا. صحيح أن لاروشيل فقدت استقال بلديتها وحصونها وأسوارها، ولكن أشخاص سكانها وأملاكهم لم تمس، وسمح من بقي من الجنود الهيجونوت بالرحيل بأسلحتهم، ومنحت حرية العبادة في المدينة للبروتستانت والكاثوليك على السواء. وتلقت مدن بروتستانتية أخرى مثل هذه الشروط بعد استسلامها. ووجب رد الأملاك الكاثوليكية التي انتزعها البروتستانت ولكن القساوسة الذين فقدوا مأواهم مؤقتا عُوِّضوا بإعانة من الدولة بلغت ٢٠٠,٠٠٠ ، وأعفوا من ضريبة (التاي) Taille مثلهم مثل رجال الدين الكاثوليك.

ومُنح عفو عام لجميع من شاركوا في التمرد. وثبت مرسوم نانت الذي أصدره هنري الرابع في كل نصوصه الجوهرية، بمرسوم ريشيليو المسمى (مرسوم العفو) (٢٨ يونيو ١٦٢٩) وفتحت وظائف الجيش والبحرية والحكومة أمام الجميع دون نظر للعقيدة.

◆ الكاردينال والنبلاء ◆

يمثل هذا الحزم الذي تعامل به ريشيليو مع البروتستانت (الهيجونوت)، وبتساهل أقل، تعامل مع النبلاء الذين مازالوا يرون في فرنسا التعدد لا الوحدة. لم تكن الإقطاعية قد ماتت قط، فلقد حاربت من قبل في الحروب الدينية لتهيمن على الحكومة المركزية. وكان كبار النبلاء يحتفظون بقلاعهم المنيعة وقواتهم المسلحة وحروبهم الخاصة وبطاناتهم وموظفيهم القانونيين وبفلاحيهم تحت رحمتهم ويتقاضون الرسوم المعوقة للتجارة التي تخترق أملاكهم.

إن فرنسا لم تكن بعد أمة لأن الإقطاع والتعصب الديني قطعا أوصالها، بل كانت مجموعة مضطربة قلقة من البارونات المغرورين أشبه بالمستقلين، القادرين في أي لحظة على تكدير السلام وتمزيق اقتصاد الدولة. وكان أكثر الأقاليم يحكمه الأدواق أو الكونتات الذين يدعون لأنفسهم حق حكمها مدى الحياة ويورثونها أبناءهم.

ولاح لريشيليو أن البديل العملي الوحيد لهذه الفوضى المضعفة هو تركيز النفوذ والسلطة في الملك. ويخيل إلينا أنه ربما أمكنه أن يجاهد ليوازن هذا التركيز برد قسط من الاستقلال للبلديات. ولكنه لم يستطع رد ما شاع في العصر الوسيط الذي اعتمد على نقابات التجار والصناع والاقتصاد المحلي المحمي؛ ذلك أن الانتقال من سوق المدينة إلى سوق الأمة قوض هذه النقابات والكومونات، وتطلب التشريع المركزي لا المحلي[1]. ولعل العقول التي تجمدت في الأوضاع الحاضرة لا ترى في السلطة الملكية المطلقة التي نشرها ريشليو غير استبدادية رجعية؛ أما في رأي التاريخ، وفي رأي الكثرة الغالبة من

(١) مثل هذا التطور أضعف «حقوق الولايات» في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن العشرين.

الفرنسيين في القرن السابع عشر، فإنها كانت تقدما حرر البلاد من الطغيان الإقطاعي إلى الحكم الموحد. لم تكن فرنسا قد نضجت بعد للديمقراطية، فأكثر سكانها مفتقرون إلى الغذاء الطيب والكساء الجيد، أميون، رانت على عقولهم الخرافة وتوحشت نفوسهم بفعل التعصب للعقيدة. وكانت المدن يهيمن عليها رجال الأعمال الذين لا يستطيعون التفكير إلا في كسبهم أو خسارتهم، ولم يكن هؤلاء الرجال، الذين عرقلت الامتيازات الإقطاعية كل خطوة من خطواتهم، ميالين إلى الاتحاد مع صغار النبلاء كما حدث في إنجلترا لإقامة برلمان يقف في وجه السلطة الملكية. ولم تكن (البرلمانات) الفرنسية برلمانات تمثيلية تشريعية، إنما كانت محاكم عليا غذتها السوابق ورسختها، ولم تكن منتخبة من الشعب، وقد غدت قلاعا للمحافظة. وحبذت الطبقات الوسطى، ومهرة الصناع، والفلاحون، سلطة الملك المطلقة بوصفها الحماية الوحيدة التي يرونها ضد سلطة النبلاء المطلقة.

في عام ١٦٢٦ أصدر ريشيليو باسم الملك مرسوما طعن الإقطاع في الصميم، فقد أمر بهدم جميع القلاع إلا ما كان منها على الحدود، وحظر تحصين المساكن الخاصة في المستقبل. وفي نفس العام (بعد أن مات أخوه الأكبر منه سنا في مبارزة) اعتبر المبارزة جريمة كبرى، فلما تبارز مونمورنسي بوتفيل والكونت دي شابيل برغم هذا الأمر أعدمهما. وقد اعترف بأنه (يحس كدرا شديد في روحه) لهذا الإجراء، ولكنه قال لمولاه، (إن الأمر خيار بين القضاء على المبارزات أو على أوامر جلالتكم). وأقسم النبلاء أن ينتقموا من الوزير، وراحوا يتآمرون على إسقاطه.

وقد وجدوا في الملكة الأم حليفا مشوقا إلى الانتقام منه. فهذه الأم التي كانت يوما ما حامية ريشيليو باتت تبغضه حين رأته يعارض سياستها، ولما مرض لويس مرضا خطيرا (يوليو ١٦٣٠) مرضته هي والملكة حتى استعاد بعض صحته، ثم طلبا إليه رأس الكردينال مكافأة لهما. وكررت ماري ديمتشي المطلب بإلحاح شديد وهي في قصرها - قصر اللكسمبورج - ظانة أن ريشيليو بعيد جدًّا، ثم اقترحت ميشيل دى مارياك، حامل الأختام، بديلا راغبا في الحلول محله. ولكن ريشيليو الذي أتى عن طريق ممر سري، دخل الحجرة في غير إذن

وواجه الملكة الأم، واعترفت بأنها أخبرت الملك بأن عليه أن يختار بين أن تذهب هي أو هو - أي ريشيليو. وانسحب الملك المرهق، وانطلق راكبا إلى كوخ صيده في فرساي. وتقاطرت الحاشية حول ماري في اغتباط بفوزها المنتظر. ولكن لويس أرسل في طلب ريشيليو، وثبته رئيسا للوزارة، وأكد له مساندة الملك له، ووقع أمرا بالقبض على ماریاك. وأشاع (يوم المغفلين) هذا (١٠ نوفمبر ١٦٣٠) الفوضى والحنق في صفوف النبلاء المتآمرين. وسمح لماریاك بالبقاء حيا، ولكن أخاه الذي كان مرشالا لفرنسا اتهم بعد ذلك بالاختلاس وأعدم في شيء من العجلة (١٦٣٢). وأمر لويس أمه أن تعتكف في قصرها الريفي بمولان وأن تنفض يدها من السياسة. ولكنها هربت إلى فلاندر بدلا من ذلك (١٦٣١)، وجمعت لها حاشية في منفاها ببروكسل، وراحت تعمل لإسقاط ريشليو. ولم تقع عيناها قط على الملك بعد ذلك.

أما ولدها الثاني ، (مسيو) جاستون، دوق أورليان، فقد حشد جيشا في اللورين وقاده في تمرد صريح على أخيه (١٦٣٢). وانضم إليه عدة نبلاء، ومنهم أرفع شريف في فرنسا - هنري ، دوق مونمورنسي، وحاكم لانجدوك. وانضوى الآلاف من الطبقة الأرستقراطية تحت لواء الثورة. وعلى مقربة من كاستلنوداري (أول سبتمبر) اشتبك مونمورنسي، البالغ من العمر سبعة وثلاثين ربيعا، مع القوات التي جردها عليه ريشيليو. وقاتل حتى أسقطه سبعة عشر جرحا، وتحطم جيشه هو وجاستون تحت وطأة الهجوم، وكان جيشا غنيا في الألقاب فقيرا في النظام، وأسر مونمورنسي. واستسلم جاستون، ودل على شركائه ثمنا للعفو عنه. وأمر لويس برلمان تولوز بأن يحاكم مونمورنسي بتهمة الخيانة؛ وكان الحكم هو الإعدام. وهكذا مات آخر أدواق مونمورنسي دون خوف أو تذمر وهو يقول: (إنني أعد هذا الأمر الذي أصدره قضاء الملك أمرا أصدرته رحمة الله). وأدان معظم فرنسا الكردينال والملك لهذه الصرامة المجردة من الشعور، وأجاب لويس: (ما أنا بملك لو كان لي شعور الأشخاص العاديين). أما ريشيليو فدافع عن الإعدام بأنه إنذار ضروري للنبلاء بأنهم هم أيضا خاضعون للقوانين قائلا: (لا شيء يدعم القوانين كعقاب الأشخاص الذين تعظم رتبتهم عظم جريمتهم).

بقيت عقبتان أخريان في طريق سياسة ريشيليو، هما ولاة الأقاليم والبرلمانات،

لقد ساء الكردينال فقدان إيراد الأقاليم بسبب ما شاب سلوك الولاة النبلاء والقضاة من البورجوازيين أو صغار النبلاء من فساد ونقص في الكفاية، لذلك أوفد الكردينال لكل قسم (محافظين) للإشراف على إدارة المالية والقضاء وتنفيذ القوانين. واتخذ هؤلاء الموظفون الملكيون مكانا أعلى من الموظفين المحليين كائنة ما كانت رتبتهم، واضمحل استقلال الأقاليم الذاتي، وانتعشت الكفاية وزادت حصيلة الضرائب. ونظام المحافظين هذا الذي استبق هنري رابع إليه بقدر ما، والذي عطله النبلاء أثناء ثورتي الفروند، والذي دعمه لويس الرابع عشر، ثم اقتبسه نابليون - هذا النظام أصبح من الملامح البارزة للبيروقراطية المحكومة مركزيا والتي أدارت منذ الآن قوانين فرنسا.

أما برلمان باريس فقد خيل إليه أن الفرصة في ظل ملكية ضعيفة مواتية لتوسيع وظائفه من تسجيل القوانين وتفسيرها إلى دور المجلس الاستشاري للملك. ولكن ريشيليو ما كان ليطيق مثل هذه المنافسة لمجلس دولته، فدعا لويس زعماء البرلمان، على الأرجح بتحريض منه، مستعملا عباراته الحادة، وقال لهم : (لقد عينتم لا لشيء إلا لتقضوا بين زيد وعمرو من الناس، فإذا تماديتم فيما أنتم فيه فإني مقلم أظافركم تقليما حادا تأسفون له). وأذعن برلمان باريس، وحذت برلمانات الأقاليم حذوه. واختزلت وظائفهم حتى التقليدي منها، فأقام ريشيليو (لجانا فوق العادة) لتنظر في الدعاوى الخاصة. وأصبحت فرنسا دولة بوليسية، وانتشر جواسيس الكردينال في كل مكان حتى في الصالونات، وغدت (الأوامر المختومة) أداة مألوفة في الحكم. وهكذا أصبح ريشيليو الآن في حقيقة الأمر وواقعه ملك فرنسا.

*** الكردينال صاحب الكلمة العليا :**

أما وقد ملكت يداه هذه السلطة المركزة، فقد فعل كل شيء من أجل فرنسا، ولم يفعل إلا القليل من أجل الشعب. كان يرى فرنسا دولة لا مجموعة من الأفراد الأحياء؛ إنه لم ينظر إلى الرجل العادي نظرة مثالية، ولعله رأى (العذوبة واللياقة) في أن يموت أمثال هؤلاء الرجال في سبيل وطنهم، فهو راغب في التضحية بهم ليؤمن وطنه المستقبل من تطويق الهابسبورج له. وكان يشقى

ساعات الليل الطويلة في تصريف شئون الدولة، ولكن همه كان أكثر الوقت سياستها الخارجية. لم يكن لديه متسع من الوقت لتحسين الاقتصاد، إلا أن يكون لتصيد المتهربين من الضرائب وجلب الدخل و(الأنباء) لباريس بقدر أقل من التسرب وهي في الطريق . وفي عام ١٦٢٧ نظم البريد العام .

وكانت الضرائب ما زال يجمعها رجال المال الذين (أقطعوا) هذه الضرائب، وكانوا يقتضون المثلين، وأحيانا ثلاثة أمثال المبلغ الذي يؤدونه للحكومة. وقد أعفى النبلاء ورجال الدين من الضرائب الهامة؛ ووجد مهرة رجال الأعمال وثروات الموظفين المختزنة السبيل للتهرب من الجباة أو استرضائهم، أما المدن فكانت تدفع مبلغ صغيرا لتنجو من ضريبة الرءوس؛ ووقعت وطأة الضرائب على طبقة الفلاحين التي فصدها ريشيليو حتى الفاقة ليجعل من فرنسا أقوى دولة في العالم المسيحي. وكان كهنري الرابع يؤثر أن يقهر أعداءه بالمال لا بالدم، وكثير من المعاهدات التي خاض بها الحرب تضمن إعانات مالية للحلفاء ورشا للأعداء المحتملين. وكان أحيانا يقرض الخزانة من جيبه الخاص إذ أعوزه تدبير المال، ومرة استأجر أحد المشتغلين بالكيمياء القديمة ليصنع له الذهب. وتضافر نظام الضرائب، والسخرة الحكومية على الطرق، مع الجفاف والمجاعة والطاعون وغارات الجنود، لتدفع الفلاحين إلى حال من اليأس تقرب من الانتحار، حتى لقد قتل عدد منهم أسرهم وأنفسهم، وقتلت الأمهات الجائعات أطفالهن وأكلتهن (١٦٣٩) . وفي عام ١٦٣٤ ، في رواية ربما بولغ فيها، كان ربع سكان باريس يتسولون. وكان الفقراء ينتفضون في فترات دورية وأوقات متفرقة انتفاضات قمعت في غير رحمة.

واستخدم ريشيليو الضرائب لبناء الجيوش والأسطول؛ ذلك أن الحق في رأيه لا يجد أذنا صاغية إلا إذا تكلم بالمدفع. ولما اشترى منصب الأميرال الأكبر، قام بواجباته بعزيمة ماضية. فأصلح الموانئ وحصنها، وأنشأ الترسانات ومخازن الذخيرة في الثغور، وبنى خمسا وثمانين سفينة، وأسس مدارس لمرشدي السفن. ودرب أفواج الجنود البحريين. وجند مائة فوج من المشاة، وثلاثمائة جندي من الخيالة، ورد النظام إلى الجيش. ولم يخفق إلا في جهوده لإقصاء مومسات الجيش. وبفضل هذه القوات الحربية التي بث فيها الحياة من جديد تصدى لفوضى العلاقات الخارجية التي خلفتها وصاية ماري دميتشي، وعاد إلى سياسة

هنري الرابع، ووجه كل قواته لهدف واحد - هو تحرير فرنسا من نطاق القوة الهابسبورجية في الأراضي المنخفضة والنمسا وإيطاليا وإسبانيا.

كانت ماري قد ألفت بين فرنسا وإسبانيا - أي أنها في رأي ريشيليو خضعت للعدو، وأقصت أولئك الذين اعتمد هنري الرابع على صداقتهم وهم الإنجليز، والهولنديون، وبروتستانت ألمانيا. ورأى ريشيليو بعين القائد الاستراتيجية اللماحة أن الممرات الفاتيلية التي تربط النمسا بإيطاليا الإسبانية هي المفتاح لقوة إسبانيا والإمبراطورية الموحدة في تبادل المؤمن والجنود. وكافح اثنى عشر عاما للظفر بهذه الممرات، وقد صرفته عن هذا الهدف وهزمته حروبه مع بروتستانت فرنسا والنبلاء، ولكنه استرد بالدبلوماسية أكثر كثيرا مما خسر في الحرب. وأوفد (الأب جوزف) في كل مكان في بعثات دبلوماسية شائكة فأداها بمهارة، وبدأت فرنسا تزاوج بين الراهب الرمادي العباءة الذي لقبته (صاحب القداسة الرمادي)، وبين ريشيليو ذي العباءة الحمراء الذي لقبته (صاحب القداسة الأحمر). أما وقد ظفر الكردينال بهذا المعين، فإنه أقسم أنه (مثبت للعالم أن عصر إسبانيا في سبيله للزوال، وأن عصر فرنسا قد أقبل).

في عام ١٦٢٩ بدا أن الصراع الطويل في ألمانيا أوشك أن ينتهي بنصر الإمبراطور الهابسبورجي الكاثوليكي نصرا مؤزرا على الأمراء البروتستانت. ولكن ريشيليو قلب الأوضاع قلبا كاملا بالمال. ذلك أنه أبرم مع جوستاف أدولف (١٦٣١) معاهدة نصت على أن يغزو ملك السويد المغوار ألمانيا وينقذ الدويلات البروتستانتية، يعينه على ذلك مليون من الجنيهات تدفعها له فرنسا كل عام. ونددد أنصار السلطة البابوية المطلقة في فرنسا بالوزير خائنا لدينه، أما هو فكان رده أن الحياد خيانة لفرنسا. فلما مات جوستاف وهو ظافر في لتزن (١٦٣٢) واستسلم معظم الأمراء الألمان للإمبراطور، دخل ريشيليو الحرب فعلا. وزاد الجيوش الفرنسية من ١٢,٠٠٠ في عام ١٦٢١ إلى ١٥٠,٠٠٠ في عام ١٦٣٨ وأعان الثورة التي قام بها القطالونيون في إسبانيا، وبفضل دبلوماسيته سيطر على كوبلنتز، وكولمار، ومانهايم؛ وبازل؛ واستولى جنوده على اللورين وشقوا طريقهم عنوة مخترقين سافوا إلى ميلان قلب القوة الإسبانية في شمال إيطاليا.

ثم دار الحظ دورته وبدا أن كل هذه الانتصارات لا معنى لها. ففي يوليو

وأغسطس ١٦٣٦ عبرت قوة كبيرة من الجيوش الإسبانية والإمبراطورية الأراضي المنخفضة ودخلت فرنسا، واستولت على اكس - لا - شابل (آخن) وكوربي، وزحفت على أميان، واجتاحت أودية السوم والواز الخضراء. وكانت جيوش ريشيليو بعيدة جدًّا، وأصبح الطريق إلى باريس مفتوحا عديم الدفاع أمام العدو. واغتبطت الملكة الأم في بروكسل، والملكة في سان جرمان، وحزبها الموالي لإسبانيا في فرنسا، وراحوا يعدون الأيام لسقوط الكردينال المنتظر. وازدحمت الجماهير الغاضبة في باريس في الشوارع منادية بموته - ولكن حين طلع عليهم بادي الهدوء فوق جواده المهيب، لم يجرؤ أحد منهم على أن يمسه، وابتهل الكثيرون لله أن يمنحه القوة لإنقاذ فرنسا. وهنا لم تتضح شجاعته فحسب، بل بعد نظره واجتهاده؛ ذلك أنه كان قد نظم منذ أمد بعيد مواطني باريس في ميليشيا احتياطية، واختزن السلاح والمؤونة لهم، ومن ثم فقد نفخ الآن فيهم روح الحماسة فاستجابوا لندائه، وأقر برلمان باريس والمجالس البلدية والنقابات الحرفية المال اللزوم، ولم تمض أيام حتى كان جيش جديد في طريقه إلى القتال، فحاصر كوربى. وتلكأ جاستون أورليان المتولي قيادة الجيش، فحضر ريشيليو، وتولى القيادة، وأمر بالهجوم. وفي ١٤ نوفمبر سقطت كوربى، وتقهقرت الجيوش الهابسبورجية إلى الأراضي المنخفضة.

وفي عام ١٦٣٨ استولى برنارد، أمير ساكسي - فيمار الذي قاد جيشا ألمانيا يموله ريشيليو، على ألزاس، فلما مات بعد سنة أوصى بها لفرنسا، وأصبحت الرأس ولوثرينجن الألزاس واللورين، وبدأت تتحول فرنسية. وفي عام ١٦٤٠ سقطت أراس. وفي عام ١٦٤٢ استولت قوة يقودها الملك والكردينال على بربنيان، واقتطع إقليم روسيون المحيط بها من إسبانيا. وهكذا بدا ريشيليو الآن في كل مكان المنظم للنصر.

وهكذا حقق ريشيليو عظمة فرنسا في أوروبا، كما حقق لها الوحدة القومية والحكم المركزي لحساب السلطة الملكية الملطقة، لكنه ترك فرنسا أفقر مما كانت عليه من قبل، مما سيقدم للفلاحين فيما بعد ذريعة للقيام بالثورات والانتفاضات التي لم تهدأ طوال قرن من الزمان. وفي تقييمه لدور ريشيليو يقول ديورانت: (ولكن التاريخ يذكر فيه بحق وقبل كل شيء الرجل الذي حرر فرنسا

من تلك السيطرة الإسبانية التي نجمت عن الحروب الدينية والتي جعلت من فرنسا - بمقتضى الحلف - دولة تتلقى من إسبانيا معاشا. بل تكاد تكون تابعة لها. إنه حقق ما كان فرانسوا الأول وهنري الرابع يصبوان طويلا إليه، وما أخفقا في تحقيقه. فقد كسر النطاق الخانق الذي طوقت به دولتا الهابسبورج فرنسا، وأنقذ البروتستانتية الألمانية باعتبارها حليف فرنسا الكاثوليكي. ويسر لمازاران أن يصوغ صلح وستفاليا البناء. أما لفرنسا ذاتها فقد حقق وحدة وقوة على حساب دكتاتورية واستبدادية ملكية ولدت الثورة حين حان وقتها. وإذا كان أول واجبات رجل الدولة أن يجعل شعبه سعيدا حرًّا، فإن ريشيليو كان شديد القصور في تحقيق هذا الهدف. وقد أدانه الكاردينال ريتز وهو قاضٍ ذكي ولكنه لم يتجرد من التحامل - لأنه أرسى أشنع وأخطر طغيان استرق دولة ربما في التاريخ كله. ولو سئل ريشيليو عن هذا لربما أجاب بأن على رجل الدولة أن يأخذ في الاعتبار سعادة وحرية الأجيال القادمة لا جيله فحسب. وأن عليه أن يقوي وطنه ليحميه من الغزو أو السيطرة الأجنبية، وأن له في سبيل هذا الهدف أن يُضحي بحق جيل حاضر من أجل أمن الأجيال التالية. وبهذا المعنى رأى فيه أوليفاريس - غريم ريشيليو الأسباني (أقدر وزير في العالم المسيحي في الألف سنة الأخيرة).

*** نهاية ريشيليو :**

قلما كان يشعر ريشيليو بالعافية، فقد عرضته الحمى التي أصيب بها لصداع متكرر كان أحيانا يلازمه أياما بطولها، ولعل جهازه العصبي كان ضعيفا بالوراثة، أو مضرورا بالخلقة، فقد كانت إحدى شقيقاته ضعيفة العقل، وأحد إخوته مجنونا بعض الوقت ، وأرجفت شائعات القصر أن الكاردينال ذاته تعتريه نوبات من الصرع وهلوسة جنونية. وكان يعاني من البواسير والبثور، ومرض المثانة. وكانت أزماته السياسية تزداد تعقدا أيضا بحصر البول كما كان الشأن مع نابليون. وقد حملته علته على التفكير غير مرة في الاعتزال، ولكنه وهو حبيس إرادته كان يأخذ الزمام ثانية ويواصل النضال.

وبعد إحدى معاركه التي حقق فيها النصر على أعدائه، أصابته آلام مبرحة بسبب الناسور الشرجي، اضطر معها أن ينتقل إلى باريس على محفة حملها أربعة

وعشرون رجلا، واتسعت لسرير الرجل المحتضر، ومائدة، وكرسي، وسكرتير يملي عليه أوامر للجيش ورسائل دبلوماسية. واستغرقت مسيرة الموت هذه ستة أسابيع. وبعد يوم من الغيبوبة مات في ٤ ديسمبر ١٦٤٢، وهو في السابعة والخمسين، بعد أن أوصى الملك أن يتخذ جول مازاران خلفا له.

تراث ريشيليو الفكري :

ترك ريشيليو ١٠ مجلدات من المذكرات، سجل فيها أعمال الدولة كلها كأنها ليست أعماله بل أعمال الملك. وكان في سنواته الأخيرة قد أهدى لويس (ميثاقا سياسيا) (يصلح بعد موتي لإدارة مملكتك وسياستها..) هنا، وسط بعض الملاحظات التافهة تجد قواعد بليغة للحكم، صيغت في أسلوب يضارع أي أسلوب في زمانه.

إنه ينصح الملك بأن يجتنب الحرب، باعتبارها شيئا لا يصلح له جلالته بطبعه. (إن مصالحة عشرة أعداء أجدى وأدعى للفخر من القضاء على عدو واحد).

ثم أسر إليه أن الفرنسيين قوم لم يخلقوا للحرب، ففي بدايتها يكونون الشجاعة كلها والحماسة كلها، ولكن يعوزهم الصبر ورباطة الجأش انتظارا للحظة المواتية، وبمضي الوقت (يفقدون الاهتمام ويغدون أضعف حتى من النساء).

ويجب أن يكون للملك، كالقائد، شجاعة الرجال القادرة على مقاومة الميول العاطفية، وعليه ألا يعطي النساء كلمة في الحكومة، لأنهن يتبعن نزواتهن وأهواءهن أكثر مما يستمعن لصوت العقل. على أن الفكر في المرأة لا يناسبها، لأني لم أر في حياتي امرأة عالمة لم يفسدها علمها.. والنساء لا يستطعن كتمان السر، و(الكتمان روح السياسة) ورجل الدولة الحصيف قليل الكلام كثير الإصغاء.

وهو يحذر أن يسيء بكلمة غافلة، وهو لا يتكلم بشر عن أحد إلا إذا اقتضى ذلك صالح الدولة. ومن واجب الملك أن يكون لديه معلومات عامة عن تاريخ جميع الدول ونظامها، ولا سيما دولته.

ثم يرجو المؤلف شيئا من التفهم لوزارته وخلقه.. (إن عظماء الرجال الذين يعينون لحكم الدول أشبه بالمحكوم عليهم بالتعذيب، مع فارق واحد، هو أن هؤلاء يتلقون العذاب على سيئاتهم، أما أولئك (أي الوزراء) فعلى حسناتهم).

◆ جول مازاران Jules Mazarin

◆ القائد والمفكر الداهية ◆

«ذلك السياسي البارع لم ينتقم من أحد، بل غفر لجميع أعدائه لأنه انتصر في الجولات كلها..»

إن المرء ليقف مندهشا عند تتبع حياة هذا الرجل، ومدى النجاح الذي حققه في بلد غير بلده غريب عنه، تحاصره المؤامرات والدسائس والأحقاد. ولكنه رغم ذلك استطاع أن يصل إلى أعلى المراتب ، وأن يكون الحاكم المطلق في فرنسا، ومصرِّف شئونها لمدة طويلة. فقد شاء له القدر أن يوجد في النصف الأول من القرن السادس عشر، حيث كانت فرنسا، وبصفة خاصة باريس، مسرحا لدسائس النبلاء ومؤامراتهم، وكان كل نبيل يحاول الحصول على أكبر قدر من الألقاب.

على أن الكاردينال مازاران استطاع أن يوقف هذه الأعمال الدنيئة، ونجح في أن يحكم فرنسا وحده. فقد استطاع بقوة شخصيته، وذكائه المتوقد أن ينقذ البلاد من خراب مؤكد، كما استطاع بحنكة سياسية عجز البلاط عن إدراكها أن يترك بين يدي لويس الرابع عشر دولة تفرض على الدول الأخرى احترامها، وتخشاها أوروبا بأسرها.

فما قصة هذا الرجل، ومن أين جاء وكيف وصل إلى ما وصل إليه.. هذا ما سنعرفه في الصفحات التالية.

*** المولد والنشأة :**

لم تكن فرنسا قد توحَّدت بعد يوم ارتقى لويس الرابع عشر العرش، وهو لا يجاوز الخامسة سنة ١٦٤٣ ، وكان على كاردينال ثانٍ أن يتم العمل الذي بدأه سلفه ريشيليو، ذلك هو جول مازاران Jules Mazarin والذي كان يسمى في إيطاليا جوليو مازارينو Jiulio Mazarino .

ولد مازاران في إيطاليا عام ١٦٠٢ بإقليم أبرتزوا Abrutzzo بالقرب من روما من أسرة متواضعة إذ كان والده بياترو مازارينو المولود في عام ١٥٧٦ م في

باليرما كان قد انتقل مع أحد أعمامه إلى روما حيث دخل في حاشية النبيل كولونا Colonna الذي زوّجه من إحدى فتيات العائلة، وعهد إليه بإدارة العديد من المناطق التي كان يملكها.

أمضى مازاران طفولته، وبعضا من سنوات مراهقته في حي Trevi في قلب المدينة البابوية. وقد بدأ دروسه في روما في سن السابعة في المدرسة الرومانية (معقل اليسوعيين). وقد أظهر خلال دراسته طاقات كبيرة تمثلت في لعب أدوار متنوعة في عدة مسرحيات دينية، وبرهن خلال دراسته على قدرة عقلية متفوقة في النقاش. وقد ربطت بينه وبين أحد شبان أسرة كولونا صداقة جعلته يذهب معه إلى إسبانيا والالتحاق بجامعة القلعة Alcala . وستفتح له إقامته في إسبانيا الباب أمام الوظيفة التي سيحاول من خلالها مساعدة عائلته وانتشالها من الفقر الذي كانت فيه، حيث يلتحق في إسبانيا بجيش البابا.

وإلى جانب الدرس والعمل كان مازاران يكرس جزءا كبيرا من وقته للعب واللهو وبقي على هذه الحال حتى الخامسة والعشرين، ثم عاد إلى روما عام ١٦٢٨ حيث حصل على درجة الدكتوراه في القانون. ولما كان يحظى بحماية آل كولونا فقد عهدوا إليه بعدة مهام ذات طابع دبلوماسي، وسرعان ما لفت إليه الأنظار كشاب بارع حكيم.

هذا التبدل الوظيفي في حياته سيشكل منعطفا جوهريا في مسيرته السياسية. فبسبب النجاح في عمله الجديد، وبفضل علاقاته الجديدة مع أسرة باربريني ذات النفوذ سيرتقي مازاران بسرعة في وظيفته ليصبح مقررا للبعثة البابوية في مدينة أفينيون الفرنسية، قبل أن يتم تعيينه نائبا لرئيسها خلال فترة وجيزة من الزمن، ومن ثم كان سفيرا للحبر الأعظم في باريس. وقد ساعدته وظيفته الجديدة في فرنسا على تحسين وضع العائلة المادي في بداية الأمر، ومن ثم على ارتقائها الاجتماعي عندما سيبدأ في إحراز بعض النجاح في المهمة التي كلّف بها هناك.

وقد كانت مهمة مازاران صعبة وشاقة إذ كانت تقضي بإقناع فرنسا - أو بالأحرى الكاردينال ريشيليو رئيس وزارة لويس الثالث عشر آنذاك، وسيد السياسة الفرنسية - بفك الحصار عن حصن كازال Casal الإيطالي، وتوقيع هدنة لوقف القتال بين فرنسا وإيطاليا.

*** لقاء مازاران وريشيليو :**

قبل لقائه بريشيليو كان مازاران قد التقى بأمير البياموت الذي قال له عن ريشيليو : (لقد تعاملت كثيرا مع الكاردينال، وهو فعلا رجل عظيم لكنه يريد البرهان دائما على أن القرارات الهامة تتعلق به وحده).

وقد اعترف مازاران، فيما بعد، بالأثر الكبير الذي سيتركه فيه هذا اللقاء مع ريشيليو في ٢٩ يناير ١٦٣٠ حيث قال: (لقد ارتبطت بالكاردينال بصورة عفوية حتى قبل أن أتعرف على صفاته الكبرى من خلال التجربة).

كان الكاردينال ريشيليو في الخامسة والأربعين من عمره آنذاك ويدير سياسة فرنسا منذ خمس سنوات، في حين لم يكن مازاران المجهول على المستوى الدبلوماسي، قد بلغ بعد الثامنة والعشرين، عندما جاء يعرض عليه الهدنة في إيطاليا.

وكانت المفاجأة في أن ريشيليو الذي كان يبذل قصارى جهده لتحقيق انتصار عسكري على خصومه في إيطاليا، استقبل هذا الدبلوماسي الشاب، واستبقاه عنده لساعات عديدة، وقَبِل بتقديم تنازلات إليه.

في الواقع، إن مازاران الذي كان يدرك الوضع الصعب الذي يقف فيه ريشيليو من الناحية العسكرية، أوحى بصورة ذكية جدا بأن قرار الهدنة كان صادرًا عن الكاردينال لوحده وبمبادرة خاصة منه. وكان ريشيليو ممتنا لهذا الموقف من جانب مازاران، الذي عرف، ليس فقط كيف يعيد السلام إلى فرنسا، وإنما أيضا كيف يجنبها هزيمة عسكرية كبرى في إيطاليا.

ابتداء من هذا التاريخ ستنشأ علاقة وثيقة بين الرجلين، فمازاران كان معجبا بشخصية الكاردينال وعظمته، وهذا الأخير كان معجبا بحنكة مازاران ومهارته. ولذا فإن الكاردينال سيوجه أوامره إلى سفير فرنسا في إيطاليا ليتدخل لدى الحبر الأعظم من أجل تعيين مازاران سفيرا بابويا في باريس. وسيقدم مازاران – على سبيل العرفان بالجميل – لريشيليو الكثير من الهدايا الفخمة، ولا سيما اللوحات الفنية المشهورة، وريشيليو الذي كان يقدر هذه الهدايا كثيرا سيستقبل مازاران بكثير من اللطف والمودة، وكان يدعوه كثيرا إلى تناول العشاء على مائدته.

وقد كتب مازاران عن هذه العلاقة قائلا: (لم يكن الكاردينال يقيم احتفالا في منزله إلا ويدعوني إليه، وغالبا ما كان يلح عليّ كثيرا كي أصطحبه إلى احتفالات الملك. وفي مقابلاتنا الخاصة كان يعاملني بقدر كبير من العفوية، في حين يظهر لي احتراما كبيرا أمام الآخرين).

بعد نجاح مازاران في إحلال السلام بين إيطاليا وفرنسا سيعود لزيارة أهله في روما سنة ١٦٣٦ . وفي روما سيحاول من جديد، بواسطة آل باربريني، العودة مرة أخرى إلى باريس كممثل للحبر الأعظم، أو حتى إلى لندن أو بولونيا. إلا أن البابا يرفض طلبه، وباءت كل محاولاته بالفشل على هذا الصعيد. وقد يكون سبب هذا الموقف المتشدد من جانب البابا يعود إلى قناعته بأن مازارن كان يخدم فرنسا في إيطاليا أكثر مما كان يولي قضايا الكرسي الرسولي، الذي يمثله، الاهتمام المطلوب.

وبعد أن فقد مازاران الأمل بإمكانية إيجاد مخرج لوضعه الصعب في روما، والحصول على منصب السفير الذي كان يطمع إليه مرة ثانية، قرر العودة إلى فرنسا والالتحاق هناك بخدمة ريشيليو.

ولم تخب آماله هذه المرة، فالكاردينال سيستقبله بحفاوة بالغة، وسيمنحه الجنسية الفرنسية، فاتحا أمامه بهذا الشكل باب السلطة على مصراعيه.

*** مازاران خلفا لريشيليو :**

كان ريشيليو الذي كان قد اختبر طاقات مازاران ومواهبه، يدرك بحدسه العميق أن باستطاعته الاعتماد على هذا الشاب، صاحب الذهن الحيوي والجريء، ليساعده، وهو المتعب، على حل المشاكل الكثيرة التي تواجهها فرنسا على الصعيدين الداخلي والخارجي.

ولذا فإنه سينصح الملك لويس الثالث عشر باستخدام مازاران، وتعيينه بصفة وزير دولة في مجلسه، ثم سيقدمه للملكة آن - دوتريش ، التي سيتربط معها مازاران بعلاقة حميمة جدا سيحتار المؤرخون في تفسيرها لاحقا. فالملكة الإسبانية الأصل، كانت متزوجة من لويس الثالث عشر منذ فترة طويلة، دون أن تنجب الوريث الذي يجب أن يؤمّن استمرار عائلة البوربون على عرش فرنسا.

وهي لم تضع مولودها الأول، لويس الرابع عشر، إلا بعد مرور عام على علاقتها الخاصة بالوزير الجديد. وربما يستند بعض المؤرخين على المراسلات المتبادلة بين الملكة ومازاران ليستنتجوا منها بأن هذه العلاقة قد تكون قد وصلت إلى حد الزواج السري بينهما.

وعلى أية حال، فإن مازاران سيحقق في فرنسا ما لم يستطعه في إيطاليا. فهو الذي عجز في نهاية عام ١٦٣٦ م عن الحصول على منصب السفير البابوي في باريس، سيجد نفسه في عام ١٦٤٠ م مرشحا لرتبة كاردينال بدعم من ريشيليو والملك لويس الثالث عشر. وعليه أن يتصرف على هذا الأساس من الآن وصاعدا. ولذلك فإنه سيكتب إلى أهله الذين كانوا يسكنون في منزل صغير متواضع ليعلمهم بأنه سيشتري قصرا يليق به وبعائلته في روما. وينجح في شراء قصر يقع على أحد تلال روما الجميلة كان معروضا للبيع مع أثاثه بسعر معقول، وسيقوم مازاران بشرائه في شهر مارس سنة ١٦٤١ بمبلغ ٧٥ ألف قطعة ذهبية.

وفي نهاية العام نفسه تم تكريسه كاردينالا، وفي حين كانت عائلته تنتظر بكثير من الترقب والشوق عودته إلى روما، لتحتفل بهذا الارتقاء الجديد لابنها البار بدأت صحة ريشيليو تتدهور بصورة ملحوظة مما أقلق مازاران إلى درجة كبيرة، فهو لا ولن ينسى فضل ريشيليو عليه، وكذا فإن من أبسط واجباته البقاء إلى جانبه، وتحمّل أعباء الدولة نيابة عنه. وسيطلع ريشيليو خلال فترة مرضه الطويلة مازران على الملفات الكبرى للمملكة . وحين حضرته المنية أكد للملك أنه لا يعرف غير مازاران رجلا كفؤا لملء مكانه . واستمع لويس الثالث عشر إلى النصيحة.

لم تكن العلاقة بين لويس الثالث عشر ومازاران على نفس درجة العلاقة التي كانت قائمة بين الملك وريشيليو إلا أنهما لم تكن تعاني من أية شائة.

وقد استقبلت البلاد مازاران للوهلة الأولى، باعتباره رئيسا للوزارة، استقبالا غير مشجع. وراح النبلاء يتناقلون عنه مجموعة من النوادر المهينة. وكان هؤلاء النبلاء يأملون بعد وفاة ريشيليو، الذي ظل أعواما طويلة ينزل بهم العقاب، أن يطلقوا لأنفسهم العنان، وأن يستحوذوا على الأرض والمناصب الكبرى، وأن يغرقوا في ملذاتهم ويحققوا ما يدور في رؤوسهم.

لكن النبلاء خاب فألهم، فقد مات حاكم مسيطر ووصل آخر لا يقل عنه حزما وبراعة وقوة يستطيع بها أن يوقفهم عند حدودهم، وقد نجح مازاران في مبادرته كلها لذكائه وقوة دبوماسيته. وكان قد اختار أن يبقى دائما في الظل فيحرك خططه ومشاريعه من وراء الكواليس. وحظه كان يكمن في أن الملكة كانت مطيعة له تنفذ مطالبه كلها وكان مازاران يعرف كيف يرى الدسائس التي تدبر فيحطمها ويطيح بها في هدوء وفي ثقة شديدة بالنفس.

*** بين مازاران وريشيليو .. اتفاق واختلاف :**

مع أن مازاران كان يفتقد إلى قوة وعزيمة سلفه ريشيليو إلا أنه كان لا يقل عنه ذكاء ورغبة لمتابعة سياسته، حتى قيل بهذا الشأن: (ظهر الثعلب بعد اختفاء الأسد). وفي حين يذهب بعض المؤرخين إلى القول بأنه منذ هيمن مازاران على شئون الحكم صار يسترشد في سياساته بالمبادئ التي وضعها ريشيليو لتأييد سلطان الملكية المطلقة في الداخل وإحراز تفوق للدولة في الخارج. فإن البعض يرى أن أساليب وطبيعة الرجلين قد اختلفت إلى حد ما، وأن أهم وجوه هذا الاختلاف أن ريشيليو كان يقدم المصلحة العامة فوق كل اعتبار، بينما حرص مازاران على خدمة مصالحه الخاصة وجمع الأموال، ولو أن هذا لم يمنعه من تقديم خدمة جليلة لفرنسا خصوصا في ميدان السياسة الخارجية التي برع فيها.

وقد قام أصله الأجنبي عقبة في طريقه. ومع أنه أكد لفرنسا أن قلبه فرنسي، وإن كان لسانه إيطاليا، إلا أن تأكيداته لم تحظ قط بالتصديق التام، فلقد كان رأسه إيطاليا، وقلبه ملكا له. ولا علم لنا كم من هذا القلب اختص به الملكة. إنه خدمها وخدم أطماعه بخبرة، واكتسب ودها، وربما حبها، وكان على يقين من أن سلامته وسلامتها في مواصلة سياسة بناء قوة الملكية تدريجيا ضد أشراف الإقطاع.

وفي سبيل الإثراء تحسبا للمستقبل، إن سقط، جمع المال بحرص الرجل الذي يذكر الفقر أو يخشاه، فحكمت عليه فرنسا، التي بدأت تعجب بفضيلة الاعتدال، بأنه محدث نعمة، وساءتها لكنته الإيطالية، وأقرباؤه الذين كلفوا الدولة غالبا، ولا سيما بنات أخيه، اللاتي تطلب حسنهن جهازا مترفا من الخدم والحشم.

وقد احتقره الكاردينال (رتز) مع أن رتز هذا لم يكن ركنا ركينا للفضيلة ، فزعم أنه (إنسان قذر.. ومحتال أصيل، وشرير لئيم) على أن رتز بعد أن هزمه مازاران لم يكن في وضع يسمح له بإنصاف عزيمه.

وإذا كان مازاران قد جمع المال دون اكتراث للكرامة، فإنه أنفقه بذوق رفيع، فملأ حجراته بالكتب والتحف التي أوصى بها بعد ذلك لفرنسا. وكان ذا أسلوب مهذب يلذ السيدات ويحير الرجال. وقد وصفته امرأة منصفة تدعى مدام دموتفيل، بأنه (يفيض رقة، بعيد كل البعد عن صرامة ريشيليو) وكان سريع العفو عن معارضيه، سريع النسيان لفضل ذوي الفضل عليه!!

وأجمع الكل على أنه لم يدخر جهدا في حكم فرنسا، ولكن هذا التفاني كان يسيء إلى بعض الناس، لأنه كان أحيانا يترك كبار زواره ينتظرون على مضض في حجرات انتظاره.

وكان كل إنسان في رأيه قابلا للرشوة، وكان عديم الإحساس بالنزاهة، أما أخلاقه الشخصية فلم يكن بها بأس إذا ضربنا صفحا عن الشائعات التي تقول بأنه جعل من مليكته خليلة له، وقد صدم الكثيرين في البلاط بدعاباته الشكاكة في الدين، ومن ثم عزوا تسامحه الديني إلى افتقاره للإيمان ، وكان أول أعماله توكيد مرسوم نانت، فسمح للبروتستانت أن يعقدوا مجامعهم في سلام ولم يكابد أي فرنسي الاضطهاد الديني في عهد وزارته.

*** مازاران.. نجاحات وعقبات :**

كانت مهمة مازاران المباشرة مواصلة الحرب بنجاح منذ أن تدخلت فرنسا في حرب الثلاثين سنة في عهد سلفه ريشيليو، ولقد سار في هذه الناحية على نهج أستاذه واستطاع أن يحقق الأهداف التي كان يعمل من أجلها. وهكذا بلغت فرنسا بمقتضى صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨ مبلغا عظيما من السطوة والنفوذ، وحققت ما كانت تهدف إليه سياساتها التقليدية من عدم قيام جار قوي على حدودها الشرقية، وذلك بعد أن تحطمت قوة إمبراطورية النمسا وخرجت من الصراع الطويل منهوكة القوى ومفككة الأوصال. وبمقتضى هذا الصلح أيضا حصلت فرنسا على إقليم الألزاس وتول ومتز وفردان. ولم تلبث أن ضمت إليها

أملاكًا أخرى بعد مضي إحدى عشرة سنة من تاريخ ذلك الصلح بمقتضى صلح البرانس مع إسبانيا سنة ١٦٥٩ .

ومع إنجلترا سيقيم مازاران علاقات وثيقة سيتوجها بتزويج فيليب دورليان، شقيق لويس الرابع عشر، من هنرييت ، شقيقة شارل الثاني ملك إنجلترا.

والواقع أن صلح وستفاليا لم يشمل إسبانيا التي انسحبت من المفاوضات، ومن ثم كان من الضروري قتالها. لكن اضطراب الأمور الداخلية في فرنسا حال دون ذلك. فقد انتهز النبلاء فرصة وفاة ريشيليو ولويس الثالث عشر وقيام الوصاية التي ظنوا فيها الضعف وأرادوا أن يستردوا امتيازاتهم وقوتهم المفقودة. فتآمروا للتخلص من مازاران وقتله عند الضرورة، والاستئثار بالحكومة، ولكن الملكة ومازاران أسرعا بإنزال العقوبات الصارمة بالمتآمرين، ليتفرغا بعد ذلك لمواجهة خطر أشد من الخطر السابق، وهو ثورة الفروند.

*** ثورة الفروند :**

في حين كان مازاران يهدف في سياسته الخارجية والداخلية إلى أمر واحد وهو أن يجعل من فرنسا دولة مرهوبة الجانب في أوروبا.. فقد فشل في القضاء على حالة الفساد والفوضى المتفشية في إدارات الدولة، ولم يستطع تنظيم حالة الضرائب التي زادت نتيجة الحروب العديدة وكلفت فرنسا نفقات طائلة وتركت خزائنها خاوية، بل وثقيلة الدين.

لقد كان نظام الضرائب الصارم موضع سخط شديد. أضف إلى هذا إسراف الملكة (آن) وما أنفقته الحكومة في استمالة النبلاء وشراء مساعداتهم لها. حتى استنفدت الحكومة بسبب ذلك كله إيرادات السنوات الثلاث التالية لسنة ١٦٤٨ مقدما. وتأخرت رواتب الجند وموظفي الحكومة. ولم يكن مازاران خبيرا بالشئون المالية، بل اعتمد في هذا على أحد الإيطاليين المغامرين هو (دي إيمري) الذي أخذ على عاتقه أن يملأ خزانة الحكومة، وأن يقتطع جانبا من الأموال لنفسه، وذلك بابتكار أنواع جديدة من الضرائب، وإحياء الأوامر الملكية القديمة، وإنشاء الوظائف وبيعها، والاستدانة بفوائد باهظة، وبيع ألقاب النبل والشرف، إلى غير ذلك من التدابير التي أثارت السخط العام وزادت في بؤس

البلاد وشقائها وهيأت الأفكار للثورة ضد الحكومة.

والواقع أن خطورة أساليب مازاران ودي إيمري قد ازدادت آثارها السلبية لأنها أساءت إلى باريس أساسا فقد تم فرض ضريبة على المساكن في ضواحي العاصمة. كما حدث تدخل صارم في عملية الاستثمار المفضلة لدى الباريسيين، ألا وهي الإيجارات التي حددتها بلدية باريس. كذلك ازدادت خطورة هذه الأساليب لأنها تعاصرت مع سريان روح الثورة في أوربا آنذاك، ففي عام ١٦٤٨ كانت الثورة ناشبة في نابولي وقطالونيا والبرتغال وفي إنجلترا. وقد كان لذلك آثاره وانعكاساته في فرنسا.

يقول ديورانت في «قصة الحضارة» مصورا هذه الفترة من تاريخ مازاران: ومن عجب أنه احتفظ بسلطته كل هذا الزمن برغم كراهية الناس له. فقد كرهه الفلاحون لما أثقل كواهلهم من ضرائب يستعين بها على خوض غمار الحرب، وكرهه التجار لأن المكوس التي فرضها أضرت بالتجارة، وكرهه الأشراف لأنه اختلف معهم حول مزايا الإقطاع. وكرهته «البرلمانات»، لأنه وضع نفسه والملك فوق القانون. وزادت الملكة من كره الناس له بحظرها توجيه النقد لحكمه. وقد أيدته لأنها وجدت نفسها في وضع تتحداها فيه جماعتان رأتا في طفولة الملك، وفي ضعف المرأة الموهوم منفذا إلى السلطة: الأشراف الذين عللوا أنفسهم باسترجاع امتيازاتهم الإقطاعية السابقة على حساب الملكية. والبرلمانات التي تطلعت لإحالة الحكومة إلى أرستقراطية من المحامين.

إزاء هاتين القوتين - (أرستقراطية السيف العريقة) و(أرستقراطية الرداء) الأحدث عهدا - التمست الملكة درعًا لها في عناد مازاران المقترن بالمرونة والدهاء.

وقد بذل أعداؤه محاولتين عنيفتين لخلعه والسيطرة عليها. هما ثورة الفروند الأولى (١٦٤٨ - ١٦٤٩) وثورة الفروند الثانية (١٦٥٠ - ١٦٥٣) .

*** ثورة الفروند الأولى :**

بدأ برلمان باريس ثورة الفروند الأولى (١٦٤٨ - ١٦٤٩) محاولا أن يكرر في فرنسا تلك الحركة التي كانت لتوها قد رفعت البرلمان الإنجليزي فوق

الملك مصدرًا للقوانين وحَكَما فيه. وكان برلمان باريس، بعد الملك، المحكمة العليا لفرنسا، وقد قضت التقاليد ألا يقبل الشعب قانونا أو ضريبة إلا إذا سجل هؤلاء الموظفون القضائيون (وكلهم تقريبا محامون) القانون أو الضريبة. وكان ريشيليو قد اختزل هذه السلطات أو تجاهلها، فصمم البرلمان الآن على تأكيدها. وأحس أنه قد آن الأوان لجعل الملكية الفرنسية ملكية دستورية خاضعة للإرادة القومية يعبر عنها مجلس نيابي. ولكن برلمانات فرنسا الاثنى عشر لم تكن مجالس تشريعية انتخبتها الأمة كما كانت الحال في إنجلترا، بل كان عبارة عن هيئات قضائية وإدارية ورث أعضاؤها مقاعدهم أو وظائفهم القضائية عن آبائهم، أو عينهم الملك فيها. ولو أن ثورة الفروند الأولى كتب لها الفوز لتحولت فرنسا إلى أرستقراطية من المحامين. وكان في الإمكان تطوير مجلس طبقات الأمة، المؤلف من مندوبين عن الطبقات الثلاث (النبلاء ورجال الدين وباقي الشعب) إلى مجلس نيابي يكبح جماح الملكية، ولكن مجلس الطبقات لم يكن يملك حق دعوته للانعقاد إلا الملك، ولم يدعه أي ملك منذ سنة ١٦١٤ ولن يدعوه حتى سنة ١٧٨٩ ، ومن هنا اندلاع الثورة الفرنسية.

على أن برلمان باريس تحول إلى هيئة نيابية بصورة غير مباشرة، يوم اجترأ أعضاؤه على الكلام نيابة عن الأمة. فنرى أومير تالون، في أوائل ١٦٤٨ ، يندد بالضرائب التي أفقرت الشعب على عهد ريشيليو ومازاران، إذ يقول:

(لقد ألحق الخراب بفرنسا طوال عشر سنوات. فاضطر الفلاحون أن يناموا على القش بعد أن بيعت أمتعتهم وفاءً للضرائب. وتمكينا لنفر من الناس أن ينعموا في باريس بحياة البذخ أكرهت جماهير لا حصر لها أن تعيش على الخبز القفار.. فاقدةً كل شيء إلا نفوسها ، وهذه لم تترك لها إلا لأن أحدًا لم يجد سبيلا لعرضها للبيع).

وفي ١٢ يوليو ١٦٤٨ ، انعقد البرلمان في قصر العدالة مع غيره من محاكم باريس ووجهوا إلى الملك وأمه مطالب عدة لابد أنها بدت لهما ثورية، فقد طالبوا بخفض ربع الضرائب الشخصية كلها، وبألا تفرض ضرائب جديدة دون موافقة البرلمان بالتصويت الحر، وبطرد النظار الملكيين Intondants الذين حكموا الأقاليم دون اكتراث للحكام والقضاء المحليين، وبألا يحبس شخص

أكثر من أربع وعشرين ساعة دون أن يمثل أمام القضاة المختصين.

ولو أن هذه المطالب أجيبت لأصبحت حكومة فرنسا ملكية دستورية، ولسارت فرنسا جنبا إلى جنب مع إنجلترا في تطورها السياسي.

بيد أن الملكة الأم ربطتها بالماضي جذور أقوى من البصر بالمستقبل، إذ لم يكن لها عهد قط بأي شكل من أشكال الحكم سوى الملكية المطلقة. وقد أحست أن التخلي عن السلطة الملكية على هذا النحو المقترح الآن مُفْض لا محالة إلى صدوع لا رأب لها في صرح الحكومة الوطيد، وإلى تقويض تلك الركيزة السيكولوجية التي يستمدها من التقاليد والعرف، والنزول بها إن عاجلا أو آجلا إلى فوضى الجماهير المتسيدة. ثم يالها من سُبة أن تسلم ولدها سلطة دون تلك التي تمتع بها أبوه أو ريشيليو!! ذلك تقاعس عن واجبها سوف يوقفها موقف الإدانة أمام محكمة التاريخ.

ووافقها مازاران لما رأى من قضاء مبرم عليه في هذه المطالب الوقحة من هؤلاء القانونيين المستنطعين. ومن ثم أمر في ٢٦ أغسطس ١٦٤٨ بالقبض على بيير بروسيل وغيره من زعماء البرلمان. إلا أن بروسيل العجوز كان قد اكتسب محبة الناس بهذا الشعار الذي أذاعه (لا ضرائب) فاحتشد جمهور من الغوغاء أمام القصر الملكي، وتعالى صياحهم بطلب الإفراج عنه.

وقد أطلق عليهم اسم الرماة (Frondeurs) لما كان يحمل الكثيرون منهم من مقاليع أو مراجيم، كما أطلق اسم (الفروند) على هذا التمرد.

على أن جان فرنسوا بول دجوندي - الملقب برتز فيما بعد - مساعد رئيس أساقفة باريس وخليفته المنتظر، نصح الملكة بالإفراج عن بروسيل، فلما أبت انسحب غاضبا، وعاون على استعداء الشعب على الحكومة، وكان خلال ذلك يستخدم نفوذه خفية في محاولة للظفر بقبعة الكاردينالية.

وفي ٢٧ أغسطس اتخذ أعضاء البرلمان، وعددهم ١٦٠ طريقهم إلى القصر الملكي مخترقين الحشود والمتاريس، تشد أزرهم هتافات تصيح: (يحيى الملك! إلى الموت يا مازاران!).

ورأى الوزير الحَذِر أن اللحظة تتطلب الحكمة لا الشجاعة، فنصح الملكة بأن تأمر بالإفراج عن بروسيل، فوافقت، ثم إذ أحفظها هذا النزول على رغبة الجماهير

اعتكفت هي والملك الصبي في ضاحية روبل، وأجاب مازاران البرلمان إلى مطالبه مؤقتا، ولكنه طاوله في تنفيذها. وظلت المتاريس في الشوارع. فلما غامرت الملكة بالعودة إلى باريس صاحت الجماهير بها صيحات الازدراء، وسمعت بأذنيها تندرها بعلاقتها بمازاران. ثم عاودت الهروب من المدينة في ٦ يناير ١٦٤٩ ، مصطحبة في هذه المرة الأسرة المالكة والبلاط إلى سان جرمان، حيث توسد الحريرُ القشَّ، ورهنت الملكة جواهرها لتشتري الطعام. أما الملك الصغير فلم يغفر قط لهذا الحشد فعلته، ولم يحب عاصمة ملكه قط.

وفي ٨ يناير أصدر البرلمان في أوج تمرده مرسوما طرد به مازاران من حماية القانون واستعدى عليه كل الفرنسيين الصالحين ليطاردوه ويقبضوا عليه باعتباره مجرما. وقضى مرسوم آخر بالاستيلاء على كل الأموال الملكية واستعمالها في أغراض الدفاع العام.

ورأى كثيرون من النبلاء في هذا التمرد فرصة لاستمالة البرلمان إلى قضيتهم- قضية استردادهم امتيازات الإقطاع - ولعلهم أيضا خشوا من أن يفلت زمام الحركة إذا لم يتزعمها ذوو الألقاب الرفيعة. وانضم إليهم كبار الإقطاعيين أمثال أدواق لونجفيل، وبوفور، وبوبون، وحتى أمير كونتي البوربوني الدم، وأمدوها بالجند والمال وحرارة العاطفة. فأقبلت دوقة بوبون ودوقة لونجفيل - الرائعة الحسن برغم إصابتها بالجدري - مع أطفالهما للعيش في الأوتيل دي فيل رهائن مختارة لضمان ولاء زوجيهما للبرلمان والشعب.

ثم حالف الحظ الملكة فأنقذ الملكة عداء بين أمير كونتي وأخيه الأكبر لويس الثاني البوربوني، أمير كونديه - وهو (كونديه العظيم) ذاته الذي قاد الجيش الفرنسي من قبل إلى النصر في روكروا ولنز. وإذ شمخ بأنفه القوي على تمرد المحامين والغوغاء، فإنه عرض خدماته على الملكة والملك، فوكلت إليه في ابتهاج قيادة جيش ضد باريس المتمردة - أي ضد أخيه، وضد أخته دوقة لونجفيل - والعودة بالأسرة المالكة في أمان إلى القصر الملكي.

جمع كونديه الجند وحاصر باريس، واستولى على شارنتون، المخفر الأمامي الحصين. أما النبلاء المتمردون فقد طلبوا المعونة من إسبانيا والإمبراطورية. وكان الطلب غلطة، ذلك أن عاطفة الوطنية كانت عند البرلمان والشعب أقوى من

الإحساس الطبقي. وأبى معظم أعضاء البرلمان أن يلغوا أعمال ريشيليو وانتصاراته بإعادة تفوق الهابسبورج على فرنسا وبدأوا يتبينون أنهم إنما يُستعمَلون معبرا في محاولة لاسترجاع نظام إقطاعي من شأنه أن يقسم فرنسا ثانية إلى أقاليم مستقلة فرادى. وفي نوبة تواضع مفاجئة أرسلوا وفدا إلى الملكة، وعرضوا الخضوع لها، مؤكدين أنهم كانوا على الدوام يكنون لها الحب. أما الملكة فقد منحت جميع المتمردين عفوا عاما، شريطة أن يضعوا السلاح، وسرَّح البرلمان جنوده، وأبلغ الشعب أن طاعة الملك هي واجب الساعة. وأزيلت المتاريس. وعادت الملكة آن، ولويس الرابع عشر، ومازاران إلى قصبة الملك في ٢٨ أغسطس ١٦٤٩ م.

والتأم شمل البلاط من جديد، وانضم إليه النبلاء المتمردون كأن شيئا لم يقع، اللهم إلا سحابة قد انقشعت، واغتفر كل شيء ولم ينس شيء، ووضعت ثورة الفروند الأولى أوزارها.

*** ثورة الفروند الثانية :**

كانت ثورة الفروند الثانية أضعف في أسبابها من الأولى إذ لم تكن لها أغراض دستورية، وإنما كانت من عمل الأرستقراطية الغاضبة. ذلك أن كونديه أحس أن خدماته تخول له الترؤس على مازاران. فتشاجر الاثنان، واتصل كونديه بالنبلاء المتذمرين يجس نبضهم، أما مازاران ففي أجرأ لحظات حياته أمر بحبس كونديه وكونتي ولونجفيل في ١٨ يناير ١٦٥٠ م وهرولت مدام لونجفيل إلى نورماندي، وأثارت حركة تمرد فيها، ثم مضت إلى الأراضي المنخفضة الإسبانية وفتنت تورين Turenne حتى ارتضى خيانة العرش وانضم إلى جانب النبلاء رغم طبيعته المسالمة والموالية للملكية، فوافق القائد العظيم على أن يقود جيشا إسبانيا ضد مازاران.

يقول فولتير : (واصطدمت كل الأطراف بعضها ببعض، وأبرموا المعاهدات، ثم خان كل منهم الآخر واحدًا إثر واحد، وما من رجل لم يغير ولاءه غير مرة).

وقال ريتز ذاكرا تلك الفترة: (كنا على استعداد لقطع رقاب بعضنا البعض عشر مرات كل صباح). وكان هو نفسه على وشك أن يقتل بيد لارو شفوكو.

قامت قوة ملكية بمناورة في بوردو انتهت باستسلامها، وقاد مازاران جيشا إلى فلاندر، وهناك هزم تورين الذي لا يقهر. أما ريتز التواق إلى الحلول محل وزير

الملكة، فقد أقنع البرلمان بأن يجدد مطلبه بنفي مازاران. وفقد الكاردينال مازران جرأته فأمر بالإفراج عن الأمراء المسجونين في ١٣ يناير ١٦٥١ ، ودفعه الخوف على حياته إلى الهرب إلى برول القريبة من بولونيا. أما كونديه المتحرق للثأثر من الوزير والملكة جميعا فقد ربط بين أخيه كونتي وأخته لونجفيل ودوق نامور ولارو شفوكو في حلف جديد. وفي سبتمبر أعلنوا الحرب، واستولوا على بوردو، وأحالوها معقلا للثورة من جديد. ووقع كونديه تحالفا مع إسبانيا، وتفاوض مع كروميل في إنجلترا ووعد بأن يقيم جمهورية في فرنسا .

وفي ٨ سبتمبر أعلن لويس الرابع عشر أنه سوف ينهي وصاية أمه عليه، ورغبة في تهدئة البرلمان أيد نفي مازاران، ولكنه استجمع شجاعته في نوفمبر فاستدعى الوزير ثانية، وعاد هذا إلى فرنسا على رأس جيش. أما جاستون أورليان فقد لعب الآن دور الحياد، ولكن تورين انحاز إلى صف الملك. وفي مارس ١٦٥٢ أوفد لويس حامل أختامه (موليه) ليطالب بولاء مدينة أورليان. فبعث قضاتها برسالة عاجلة إلى جاستون هددوه فيها بتسليم المدينة إلى الملك ما لم يعد هو وابنته ليستنفرا أهلها.

هنا ظهرت على مسرح الأحداث امرأة من أشهر نساء فرنسا، شبهها بعضهم بـ (جان دارك) ثانية أقبلت لتنقذ أورليان. هذه المرأة - آن ماري لويز دورليان - كانت قد رفعت راية العصيان في طفولتها حين نفى ريشيليو أباها. وكان جاستون يلقب رسميا بـ (المسيو) باعتباره شقيق لويس الثالث عشر، أما زوجته ماري بوربون، دوقة مونباسييه، فهي (مدام) ذلك العهد، وابنتهما إذن هي (المدموازيل)، ولما كانت هذه الفتاة قوية البنية فارعة القوام فقد سميت (الجراند مدموازيل دمونباسييه). وإذ كانت ذات ثراء عريض فقد شبت على كبرياء المال والنسب، وكانت تقول: (إنني أنتمي إلى بيت لا يفعل إلا ما هو جليل نبيل). وقد تطلعت إلى الزواج من لويس الرابع عشر، فلما لم تلق تشجيعا احتضنت التمرد. وحين سمعت استغاثة مدينتها ورأت أباها (جاستون) يكره أن يخوض المعمعة، حصلت على رضاه بأن تنوب عنه. ولقد طالما غاظتها القيود التي فرضها العرف على بنات جنسها، ولشد ما أنكرت حرمان النساء من الانخراط في سلك الجندية. ومن ثم فقد لبست درعًا وخوذة، وجمعت حولها لفيفا من كرائم النساء

المسترجلات وقوة صغيرة من الجند زحفت بها في مرح وابتهاج على أورليان. وأبى القضاة أن يدخلوها المدينة خشية إغضاب الملك، فأمرت بعض رجالها أن ينقبوا ثغرة في الأسوار، ومنها تسللت وبرفقتها كونتيستان بينما الحراس يغفون أو يغضون. وما إن أفلحت في دخول المدينة حتى استطاعت أن تلهب مشاعر أهلها بسحر خطبها النارية. وهكذا رُدَّ موليه عن المدينة خاوي الوفاض وأقسمت أورليان يمين الولاء (للعذراء) الجديدة.

وبلغت ثورة الفروند الثانية ذروتها على أبواب باريس. فقد زحف كونديه عليها من الجنوب، وهزم جيشا ملكيا، وأوشك أن يأسر الملك والملكة، والكاردينال مازاران، وبينما كان جيشه يقترب من باريس طافت الجماهير شوارع باريس في موكب ضارعة إلى الله أن ينصر كونديه ويُسقط مازاران. أما الجراند مدموازيل فقد هرعت من أورليان إلى قصر لكسمبورج حيث كان أبوها لا يزال على تذبذبه، وطلبت إليه أن يؤيد كونديه، ولكنه رفض. واقترب الآن تورين وجيش الملك، والتقيا بقوات كونديه خارج الأسوار قرب بوابة سانت أنطوان (ميدان الباستيل الآن). وكاد تورين يكسب المعركة، لولا أن المدموازيل اندفعت إلى الباستيل وحرضت مأموره على تصويب مدافعه على جنود الملك. ثم أمرت القوم داخل الأسوار، باسم أبيها الغائب، أن يفتحوا الأبواب برهة ريثما يدخل جيش كونديه، ثم يغلقوها في وجه جيش الملك في ٢ يوليو ١٦٥٢، وهكذا كانت المدموازيل بطلة الساعة.

وغدا كونديه سيد باريس، ولكن الرؤوس المتزنة أخذت تنقلب عليه، ولم يستطع أن يدفع رواتب جنده، فبدأوا يهجرونه وأفلت زمام الجماهير. وفي ٤ يوليو هاجم الغوغاء قاعة المدينة مطالبين بأن يسلم إليهم جميع مؤيدي مازاران، وإظهارًا لسخطهم أشعلوا النار في المبنى، وقتلوا ثلاثين من المواطنين. وتعطلت العمليات الاقتصادية، وعمت الفوضى المدينة وانقطع إمداد المدينة بالطعام، وخشى نصف أسرات باريس الموت جوعا، وتساءلت الطبقات المالكة: أليست الأوتوقراطية الملكية، بل أليس حكم مازاران، أهم من حكم الرعاع؟! وأعان مازاران الموقف حين ارتضى لنفسه النفي طوعا، تاركا الفروندیين بغير قضية توحد صفوفهم. أما ريتز فقد رأى أن الوقت قد حان لدعم مكاسبه بعد أن تم له

الظفر بقبعة الكردينالية الحمراء التي طالما اشتهاها، فاستخدم الآن نفوذه ليشجع الولاء للملك.

وفي ٢١ أكتوبر عادت الأسرة المالكة إلى باريس دون أن يمسها سوء. وافتتن الباريسون بمنظر الملك الصغير، ورددت الشوارع هتاف الجماهير (يحيى الملك) وما لبث هياج الشعب أن هدأ بين عشية وضحاها، وأعيد النظام لا بفضل القوة، بل بهالة الملكية، وهيبة الشرعية. وما وافى ٦ فبراير ١٦٥٣ حتى استشعر لويس في نفسه من القوة ما شجعه على دعوة مازاران للعودة وتثبيته مرة أخرى في جميع سلطاته السابقة. ووضعت ثورة الفروند الثانية أوزارها. وفر كونديه إلى بوردو، وخضع البرلمان في بطء ووقار، واعتكف النبلاء المتمردون في قصورهم الريفية. ونفيت الجراند مدموازيل إلى إحدى ضياعها.

أما مازاران فقد هبط على قدميه دون أن يضار، وعاد سيدًا على المملكة، وخادما لملك ما زال راغبا في التعلم. وقد روَّع فرنسا أن يبرم الوزير معاهدة مع إنجلترا البروتستانتية وكروميل قاتل ملكها (١٦٥٧)، الذي أعان على محاربة كونديه والإسبان بإرساله ستة آلاف جندي، وأحرز الفرنسيون والإنجليز معا النصر في (معركة الكثبان) في ١٣ يوليو ١٦٥٨م. وبعد عشرة أيام سلم الإسبان دنكرك، فدخلها لويس في احتفال رسمي مهيب، ثم نزل عنها لإنجلترا طبقا للمعاهدة. وأبرمت إسبانيا مع فرنسا صلح البرانس في ٧ نوفمبر ١٦٥٩ م بعد أن استنزف القتال مالها ورجالها فأنهت بذلك ثلاثة وعشرين عاما من الحرب، وقد صدر العفو عن كونديه وسمح له بالعودة إلى فرنسا، وتم الاتفاق لتحسين العلاقات بين فرنسا وإسبانيا - على أن يتزوج لويس الرابع عشر من الأميرة الإسبانية ماريا تريزا Maria Theresa كبرى بنات فيليب الرابع ملك إسبانيا. وقد تنازل لويس الرابع عشر في ذلك العقد عن كل ما يخص زوجته من أملاك إسبانية أو من حق في عرش إسبانيا. ولكنه اشترط أن يكون ذلك لقاء مبلغ مالي كبير بلغ ٥٠٠,٠٠٠ جنيها ذهبيا تدفعه إسبانيا.

كان صلح البرانس مع إسبانيا الدليل على إنجاز برنامج ريشيليو - وخلاصته كسر شكة الهابسبورج، وحلول فرنسا محل إسبانيا أمة متسلطة في أوروبا. واعترف الفرنسيون في الوصول بهذه السياسة إلى ختامها الظافر، ومع أنه لم يظفر إلا بحب القليلين منهم، فإنهم رأوا فيه رجلا من أكفأ الوزراء في تاريخ فرنسا. ولكن فرنسا التي سرعان ما نسيت خيانة كونديه، لم تغتفر لمازاران جشعه وحرصه. ففي وسط الفاقة التي كابدها الشعب جمع ثروة طائلة، وكان يحول المخصصات الحربية إلى خزائنه الشخصية، ويبيع وظائف التاج لمنفعته الخاصة ويقرض الملك بالربا، وقد أهدى إحدى بنات أخيه قلادة ما زالت تعد من أغلى الحلي في العالم.

◆ نهاية مازاران ◆

كان مازاران يعاني من حمى التيفوئيد منذ فترة طويلة، وبالتحديد منذ تعيينه سفيرا بابويا في باريس. وفي سنة ١٦٤٤ تفاقمت هذه الحمى في جسده لدرجة أنه كاد أن يموت. وابتداء من سنة ١٦٥١ سيعترف للملكة الأم بهذا الداء الذي يسبب له آلاما مبرحة تفقده القدرة على الاستيعاب في بعض الأحيان. وستتضاعف هذه النوبات انطلاقا من عام ١٦٥٧ بصورة متزايدة لتحرم مازاران من الكتابة ولترهقه إلى درجة قصوى.

في ٦ فبراير ١٦٥٩ ، اندلعت النار في قصر اللوفر، ووصلت إلى شقة مازاران. ويروي لويس دي بريان، مساعده الشخصي، كيف هرع لإنقاذه من الخطر المحدق به: (ركضت إلى شقة الكاردينال، وهناك التقيت به وهو يخرج من جناحه الخاص، يرفعه رئيس حرسه من تحت إبطه، كان محبطا، ويرتسم اليأس في عينيه، إما لأن الخوف من أن يموت محترقا في سريره كان قد أوصله إلى هذه الحالة، وإما لأنه كان يرى في هذا الحريق الكبير إنذارا أرسلته له السماء عن نهايته القريبة).

بعد نقله وهو على حافة الموت إلى قصره في شارع ريشيليو، سيجتمع الأطباء وبينهم جينو (طبيب مازاران) ليقولوا بوفاته القريبة. بعد أن عرف مازاران أنه لم يبق له أكثر من شهرين على قيد الحياة، قام بحجز نفسه في مكتبه، حيث راح يفكر جديا في الموت.

حتى اللحظة الأخيرة من حياته كان مازاران لا يستطيع إبعاد الناس عن سريره. فالمقربون منه وأعضاء العائلة المالكة كانوا يحيطونه بعناية فائقة، حتى أن الملكة أصرت على أن يرتاح في غرفة موازية لغرفتها كي تستطيع السهر عليه. وكان كل أفراد البلاط في قصر فانسان يراقبون تطور احتضار الكاردينال بكثير من القلق كما لو كان ملكا.

وهو على فراش الموت، وقد أحس أن شمعة الحياة تنطفئ رويدا رويدا كتب وصيته، التي عبر فيها عن كم هو مدين للأسرة المالكة بالفضل والعظمة والثروة التي يمتلكها. ترك مازاران بموجب وصيته جزءًا كبيرا من ثروته الشخصية التي كانت تقدر آنذاك بأربعين مليون قطعة من الذهب، للملك لويس الرابع عشر. وترك له أجمل ما يمتلك من لوحات فنية وتحف نادرة ومجوهرات ثمينة، كما سيتنازل عن مكتبته الخاصة الغنية جدا، وعن قصره الخاص الذي سيدفن فيه، والذي سيصبح فيما بعد مركزا للأكاديمية الفرنسية.

ولما حضرته الوفاة أشار على لويس بأن يكون وزير نفسه الأول، وألا يترك مسائل السياسة العليا لأي من مساعديه إطلاقا. وكانت وفاته في ٩ مارس ١٦٦١.

*** إرث مازاران الفكري والسياسي :**

ترك مازاران إرثا فكريا وسياسيا ذا قيمة عالية، وتمثل هذا الإرث في المراسلات الغزيرة التي تبادلها مع مساعديه وكبار رجال عصره ، والملاحظات الكثيرة التي دونها في دفاتره عن مختلف الأمور والقضايا. أيضا تمثل (الوصايا) (Le Brviaire de Politicians) خلاصة فكره في ممارسة السلطة، كما لقنها لتلميذه ومليكه المتفوق لويس الرابع عشر.

ومن الغريب أن هذه الأوراق التي تركها مازاران، والتي ملأت سبع مجلدات ضخمة، لم تجد ما تستحق من عناية الدارسين والمؤرخين إلا منذ فترة قريبة. ربما يكون ذلك بسبب أن (الوصايا) - أو الدليل ، كما يسميها بعض الكتاب - وبسبب الشهرة الواسعة التي أحرزتها حتى في زمن لويس الرابع عشر ، كانت تعتبر بحق عصارة ذلك الذهن الوقاد، الذي كان يجسده مازاران في عمله السياسي، وتعكس تجربته الطويلة في الحكم، ومعرفته العميقة بنفسية الحكام والمحكومين.. لذا يزول العجب والدهشة عندما نعرف أنه لم يكن ثمة حاجة ملحة للتفتيش عن أوراق مازاران الخاصة لمعرفة ما تتضمنتها من فلسفة سياسية ما دام أن خلاصة هذه الفلسفة كان موجودة في هذا الكتيب البسيط السهل المنال، الذي يسمى (الوصايا) أو (الدليل).

ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتيب في كولونيا عام ١٦٤٨، ولاقت هذه الطبعة نجاحا منقطع النظير، إذ طبعت أكثر من عشر طبعات متوالية في أنحاء أوروبا، ولم تظهر الترجمة الإيطالية للكتاب، باعتبار أن الأصل كان مكتوبا باللاتينية، إلا في عام ١٦٩٨، في حين لم تظهر الترجمة الفرنسية إلا في القرن العشرين.

والآن .. نتركك مع مازاران ووصاياه، كما خطها قلمه لتستبين منها فكره وشخصيته وسلوكه في الحياة والسياسة .

وصايا مازاران للسياسيين

BREVIAIRE DE POLITICIENS